شفرة من العالم الآخر

obeikan.com

الكتاب : شفرة من العالم الآخر
المؤلف : فاطمة على سعيد
تصميم الغلاف : طارق فوزى
تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد
رقم الإيداع : ٩-٢٩-٦٤٣٦-٩٧٧-٩٧٨
الترقيم الدولي : ١٦٥٤٢ /٢٠١٣
الطبعه الاولي :٢٠١٣

٢٠ عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

شفرة من العالم الآخر

رواية

فاطمة ماضي

للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

إهداء..

لكل من أراد أن يفهم قبل أن يقرر..

obeikan.com

obeikan.com

بوابة الدخول:

عندما تؤدي بك مسارات الحياة إلى طريق مظلم.. حالك السواد، خافت ما فيه من أصوات، تسمع صوت أنفاسك الحائرة فقط، وضربات قلبك تدب بوضوح في أذنيك فتشعر بالوحشة، الظلام يعصر قلبك ويجبرك على المسير فيه لتعرف كيف تكون النهاية، أيكون هناك مخرج يريحك من هذا الطريق ووحشته؟ أم ظلام أكثر قسوة؟ أو تهوي في مكان سحيق؟

ومن نحن؟ وما هي حياتنا؟

نمشي في أروقة ضيقة تنعطف بنا يمينًا وتجبرنا على السير يسارًا، أو نسير في طريق مستقيم لا نرى نهايته وطوله ينسينا كيف كانت البداية، هائمون.. حياتنا شفافة.. نأكل ونشرب وننام.. ونصحو.. نفعل كل شيء كرره الملايين من قبلنا وسيفعله الملايين من بعدنا، حياة هلامية ليس لها لون ولا أثر ولا بصمة؛ تبقينا أحياءً بعد انقطاع أنفاسنا.

الأيام تمر.. الدقائق تجري.. دقاتها ترتفع.. تحذّر.. تنذر، وخلايا وجوهنا تتبدل وزوايا الحياة تختلف..

كلنا هائمون.. تائهون.. نفعل ما نفعل لمجرد استمرار الحياة.. لذلك كان العظماء عندما كسروا القاعدة وجعلوا أجسادهم تسير بيننا ونستنشق أنفاسهم، وإن كان الكثير منها واراه التراب..

فإنني أنا الإنسان أسير في طريق لا أعلم أهو منير أم مظلم على الرغم من بصري، وأصرخ خلف قضبان لا أعلم من الذي بناها حولي، ولكن.. الأرض تتشقق.. السماء تُكشط.. الجبال تُنسف.. الهواء يعوي، ولكن روحي تظل كما هي.. أسمع أصواتًا غريبة ومخيفة في الكهف.. ولكن كهفي كل أصواته مألوفة.. هي مزيج مني..

جزء مني في ذلك العالم.. ولكن العالم كله داخلي.. أحتويه في صدري ونفسي وعقلي..

دفء أنفاسي يزيده سخونة وإثارة، وثقل خطواتي يعطي له بصمة جديدة.

صرخاتي تتصدع منها الأرض والسماء.. وأنيني يمزق أذنيّ الوجود..

وهذا هو كوني ووجداني الداخلي..

فاطمة علي ماضي

obeikan.com

الشخصيات

- حسن: موظف في شركة استثمارات عقارية.

- سناء: زوجة حسن.

- فارس: ابن حسن وسناء، يبلغ من العمر العاشرة.

- عاصم: الطبيب المعالج لحسن.

- سالم: شخصية يحيط بها الكثير من الغموض، دائمًا ما يقابل حسن في العالم الآخر.

obeikan.com

obeikan.com

(١)

رجع حسن من عمله منهك القوى يأمل في الراحة ببيته، وما إن فتح باب الشقة حتى وجد ابنه فارس يجري إليه ليأخذه بين ذراعيه، فجلس وأخذ يداعبه ويضحكا معًا.. وبعد دقائق معدودة خرجت سناء من المطبخ مرحبة به، ولتخبره أنها انتهت من إعداد الغداء، فرفع حسن ابنه وحمله بين ذراعيه وفارس يضحك بشدة، وتجمعت الأسرة الصغيرة حول المائدة..

وبعد أن بدأوا في تناول الطعام بدقائق.. بدأ حسن يشعر بارتخاء شديد في جسده، حتى إنه تصور أنه سيفقد الوعي.. ثم سمع صوتًا غريبًا.. التفت حوله وأخذ عقله يكرر هذا السؤال بدهشة:.. ما هذا؟!

إنها أنفاس تقترب منه، يزداد ارتفاعها وحسيسها تدريجيًا، لها حشرجة غريبة الوقع على الأذن، ليست كأنفاس البشر..

واقتربت شيئًا فشيئًا وتلاحقت، حتى ارتفع الصوت واقترب كأنه خلف أذنيه.. بل كأنه كائن يلهث داخل رأسه.. ثم الصمت.

أخذ نفَسَه للحظة، ولكن مزق الصمت فجأة ذلك الصوت الرهيب الذي اهتز له جسده كله من هوله وشدته، صرخة عالية مستمرة حادة للغاية!! شعر حينها أن جسده سيتمزق من قوتها..

كل ذلك وزوجته تحاول تهدئة جسده الذي أخذ ينتفض بشدة، وفارس يبكي لهذا المشهد خائفًا على والده، وتوترت أعصاب سناء أكثر كلما رددت اسمه وهو لا يستطيع الرد عليها غير شاعر بها.. محملق العينين للغاية.. منتفض البدن كأنه يتعرض لصدمة كهربية شديدة.. واستمر ذلك لدقيقة ثم التوى رأسه وسقط على الطبق الذي أمامه، ومازالت عيناه مفتوحتين..

ثم لم يشعر بشيء بعدها..

*****

فتح حسن عينيه.. فوجد نفسه في الفراش وحوله زوجته وابنه يراقبانه بعيون مذعورة، فقال بوهن:

ماذا حدث؟

لم يجبه أحد منهما، وظلا صامتين حتى كرر السؤال.

فقالت سناء: أنت قل لي بماذا تشعر الآن؟

قال وكلماته تتلاصق في بعضها: لقد كنا على طاولة الغداء، فماذا حدث؟

ردت في هدوء: يبدو أنك تحتاج إلى الراحة..

وأغلقت ضوء المصباح وخرجت، فدخل في نوم عميق لم يشعر فيه بنفسه ولا بمرور الساعات..

ثم استيقظ كأي يوم عادي وتناول الإفطار وخرج متجهًا إلى عمله.. ،ومضت بعضٌ من ساعات العمل وهو مستغرق فيها متناسيًا ما حدث له البارحة، ولكنه فجأة شعر بنفس التراخي لعضلات جسده مرة أخرى وهو جالس على مكتبه ووسط زملائه، وسمع نفس الأنفاس المتلاحقة السريعة المثيرة للرعب.. وتساءل عقله لثانية: عجبًا! من أين يصدر هذا الصوت؟!

وتراجع رأسه إلى الخلف جاحظ العينين.. وبدأت فترة الصمت..

جسده مكبل على هذه الشاكلة.. قيود تجبره على الخضوع، ثم بدأ ذلك الصوت المخيف يرج أركان رأسه بشدة، نفس الصرخة العنيدة القاسية.. وأظلمت الدنيا فجأة.. ورأى ما رأى.

مكان مخيف مثير للانقباض.. يدعو للهرب، ولكن إلى أين يذهب؟!

وأفاق على زملائه مجتمعين حوله في محاولة لإفاقته والاطمئنان عليه، وسمح له مديره الذي كان واقفًا مع الواقفين أن يعود إلى المنزل.. لقد بدا عليه التعب الشديد بعد إفاقته.

دخل البيت مرهقًا مفتت الأعصاب.. ،كان يشعر أن الصرخة لا تزال تهز كيانه من الداخل..

رأته سناء بهذه الحالة فسألته: ماذا بك؟ وما الذي أرجعك مبكرًا عن موعدك؟!

أجابها بإرهاق شديد: لقد تكرر ما حدث البارحة أثناء العمل.

فتركته يرتاح، ولكن فكرت أن ما حدث ليس بشيء عارض مادام تكرر.. خاصة بعد ما رأته وسمعته منه أثناء غيبوبته..

*****

ومرت الأيام لتؤكد أن زوجها فيه شيء قد تغير، وأنه يعيش حالة غريبة مثيرة للشك.. وأحيانًا للشفقة.

صحت يومًا بعد منتصف الليل قلقة وبحثت عنه في كل مكان في المنزل.. ،وأخيرًا وجدته نائمًا في الشرفة غير شاعر بالبرودة التي تلفح ظهره! فساعدته ليقوم وينام مكانه..

وقد يمر به الزمن متصلبًا في وضع معين أو يقوم بشيء ما، مثل تلك المرة التي وجدته فيها ناظرًا بتمعن نحو المرآة، وخرجت من الحجرة لتقوم ببعض الأعمال المنزلية ورجعت بعد ساعة فوجدته مكانه لم يتحرك!! لقد فقد الإحساس بالوقت، وأحيانًا يحدّثها عن مواقف لم تحدث وأشخاص لا تعرفهم.. واستمر ذلك لأسبوعين مرا كسنين، فخافت أن تسوء حالته أكثر من ذلك، خاصة أن النوبات التي تحدث له أصبحت متكررة بشكل ملحوظ في كل مكان يذهب إليه ، فاقترحت أن يذهبا إلى الطبيب فوافق على غير تركيز.

وبعد الفحص عند الكثير من الأطباء دون جدوى نصحهما أحدهم بالذهاب إلى طبيب نفسي؛ لأنه غير مريض بأي شيء يذكر إلا الإرهاق الشديد وعدم التركيز الظاهران عليه، واللذان ليس لهما سبب واضح في الأشعة والتحاليل العادية.

بحثت سناء عن طبيب نفسي في تكتم حتى لا يعرف أحد من عائلتهما، واهتديا إلى طبيب اسمه عاصم الكرم معروف بالتميز والسرية، فذهبا إليه كآخر باب يمكن اللجوء إليه، وصمم حسن على الدخول وحده..

نظر إليه حسن.. أحس أنه هادىء.. غامض، عيناه تلمعان ذكاءً.. صامت حتى إن الذي يراه للمرة الأولى يتصور أنه أبكم، ولا تظهر على وجهه أي انفعالات.

وجلس أمامه، فقال:

أتيتك لتعرف ما بي.. لقد عشت أيامًا من عذاب الجحيم.

ترك عاصم القلم من يده ونظر إليه باهتمام ولم ينطق بكلمة..

فأخبره حسن عما يحدث له؛ من سماع صرخات ونوبات متكررة من الإغماء وما يصاحبها، وهنا.. قاطعه عاصم بعدما تكلم حسن كثيرًا، وقال في اهتمام كبير مميلاً ظهره إلى الأمام:

ماذا رأيت في العالم الآخر الذي تذهب إليه أثناء الإغماء..؟

obeikan.com

(٢)

قال حسن في حيرة: لا أعرف ماذا أقول؟ إنني أنتقل إلى عالم مختلف.. أكون فيه بنفسي وجسدي ولكني أحادث أشخاصًا آخرين.. أرى أشياء غريبة، ويحدثني شخص يظهر لي في صور مختلفة.. في كل مرة نفس أسلوبه في الكلام.. نفس طريقة تفكيره.. ونفس لهجته الآمرة، ولكنه ينتقل بين أشكال كثيرة.. ولا أملك إلا أن أنفذ أوامره..

في أول مرة كنت خائفًا للغاية.. نظرت حولي متسائلاً: أين أنا..؟

إنني لا أرى أمامي أي حجرة من حجرات بيتي ولا زوجتي وابني، ولا حتى مكانًا مألوفًا لديّ.

المكان خافت الإضاءة ولكن ما يوجد به يبهر العين.. أعمدة ضخمة كأعمدة القصور التي تشبه قصور الأساطير أو الآثار القديمة، ولكنها مزخرفة وليست متآكلة، توحي إليك بأنك رجعت فعلاً إلى ذلك العصر، زخارف رائعة أروع من التحف الفنية.. مكان ملكي بحق، السقف عالٍ جدًا.. الحوائط عليها مشغولات متقنة الصنع، والأطباق الذهبية التي بجانبها مبهرة، رفعت رأسي فوجدت السقف لوحة فنية كبيرة من الكلمات المتداخلة بحرفية عالية، وسألت نفسي عندما جاءت في ذهني صورة بيتي الصغير:

من يمكن أن يعيش في هذا القصر شديد الفخامة؟ من المؤكد أنه لا يقل عن سلطان هذا العصر.

لكن فخامته أدخلت في جسدي الرهبة أكثر من التعجب، وترددت أسئلة الدهشة والقلق أكثر في عقلي.

مشيت في الممر الواسع الطويل الذي على جانبيه أعمدة بنفس الشكل ولكنها أصغر.. تملكني الخوف.. أشعر أن الأعمدة ستتقارب من بعضها عما قليل وتعتصرني وتكسر عظامي داخلها، ثم وجدته أمامي فجأة.. يلبس ملابس الملك.. ملابس أسطورية تذكرني بالأفلام التاريخية التي تحكي عن أقوام ماتوا منذ آلاف السنين وعاشوا في القصور واستبدوا بالرعية..

لا أرى وجهه بوضوح.. وبعد لحظة من التفكير مشيت تجاهه فأصبحت قريبًا منه بما فيه الكفاية لنتحدث، فبدأ هو بالكلام:

ماذا بك؟ أتخاف مني؟

كان صوته كصوت القادة مملوءًا بالاعتزاز بالنفس والفخر.. ونبرته عالية..

قلت بصوت مرتعش: من أنت؟ وأين أنا؟ أريد الرجوع إلى بيتي..

قال بنفس العظمة: لا تستوحشني.. فأنا في دمك.. جزء منك.. لا ننفصل أبدًا.

لم أفهم ما قاله.. ولم أجد شيئًا لأقوله.. سكتُّ لأن عقلي لازال غير مستوعب ما يحدث.

فاستطرد: أتريد الخروج من هنا؟ لسوف تفعل ما آمرك به وتقوم بالمهمة التي أتيت هنا لأجلها؛ حتى تستطيع الخروج.

ثم سكت طويلاً.. كل هذا والجو في ذلك المكان يضغط على صدري، كأنما أصبح ثقيلاً لا يمكن دخوله أو خروجه مني، وتمنيت من كل قلبي أن يتكلم فأفعل ما يريد حتى أخرج من هذا المكان الموحش، والذي لم أتخيل للحظة أني سأدخله؛ حتى عندما كنت طفلاً صغيرًا ذا خيال واسع يدخل بعقله في الأساطير.

ثم نطق فجأة بعدما اقترب مني كثيرًا بسرعة لم أدركها، فرأيت عينيه.. إنهما حمراوتان بشدة، يحملق فيّ آمرًا واثقًا من أنني سأنفذ دون مناقشة.. قال:

ستنزل إلى قبو القصر.. وتحرر السر الذي بالأسفل، وتأخذ منه ما يعطيه لك وتحتفظ به جيدًا، وأحذرك من السماع لأي شخص يقابلك ويشتت انتباهك.. أفهمت؟!

تأملت هذه الكلمات البسيطة والغامضة أيضًا، ألا يوجد شرح لما قاله؟ ، ولكن التفكير لم يعطني الفرصة لطلب التفسير منه.. فلقد تلاشى من أمامي فجأة بعدما نظر إلى تعبيرات وجهي بعمق؛ يرى مردود أوامره عليّ.

وتعجبت من هذا.. سر سفلي وقصر ذو أعمدة؟! لقد دخلت إحدى الأساطير القديمة بالفعل!! ولكن.. ماذا لو لم أنفذ ما يقول؟ ومن هذا أصلاً؟

ثم نظر حسن إلى عاصم، وقال بعدم تيقن أنه سيصدقه: إنني لست مجنونًا أو مريضًا نفسيًا، فهذا ما رأيته فعلاً..

وأخذ نفسًا عميقًا ثم استطرد: ومرت اللحظات العصيبة في التفكير، حتى قررت أن أنفذ طلبه لعلي أرجع إلى بيتي وعالمي، فتساءلت: أين اتجاه القبو؟ وسرت في نفس اتجاه الممر الذي حدثته فيه، وأكملته إلى نهايته إلى أن وصلت إلى باب خشبي عريض مقسوم وفتحته، فوجدت حائطًا يؤدي إلى سلم يهبط إلى أسفل.

إنه سلم مبني ملتوي كأنني داخل برج قديم، ووجدت على جانبي السلم مصابيح تضيء المكان بإضاءة أكثر قليلاً من الأعلى، وبدأت في الهبوط ببطء متخيلاً أني سأصل إلى القبو بسهولة، ولكن طال عليّ الأمر في الهبوط حلزونيًا، مع التفاف السلم الذي جعلني أشعر بالدوار، وكلما نزلت أكثر شعرت ببرودة غريبة ومخيفة في جسدي، ولكني لا أملك الرجوع، فالباب المؤدي إلى السلم حينما دخلت منه انغلق خلفي ببطء مخيف ثم أُوصد تمامًا، وكلما نزلت درجة أُطفئت المصابيح على الجانبين منذرة بأنه طريق واحد، وأنه لا سبيل إلا الانتهاء من المهمة.

وأخيرًا بعد ما يقرب من ساعة من الهبوط؛ وجدت نفسي في مكان واسع كالأعلى، ولكنه قديم وغير أنيق، وبه نفس المصابيح ضعيفة الإضاءة أيضًا، فنظرت حولي لاستنباط أي اتجاه يؤدي إلى المكان الذي فيه السّر، ومشيت في الممر المواجه للسلم الذي أتيت منه، ورأيت مفترقًا.. على يميني ممر وعلى يساري ممر..

قليل من الحيرة، بعدها لم أفكر كثيرًا ومشيت في الممر الأيمن لبضع دقائق؛ فوجدت على يساره سجنًا مغلقًا بالحديد، اقتربت منه فوجدت شخصًا ضعيفًا متهاويًا على الطرف البعيد للسجن، متهالك الملبس ويضع رأسه بين ركبتيه مستسلمًا.. ولكنه ما إن سمع خطوات قدميّ تقترب حتى وقف ونظر إليّ ملتمسًا القادم بلهفة، إنه رجل قمحي اللون يميل إلى البياض.. شعره أسود داكن.. له أنف أفطس وعينان بنيتان وجهته عريضة، واقترب من الحديد وحاول محادثتي بثقة كأنه يعرفني، فلم ألتفت إليه ومشيت مستكملاً طريقي، ولكني لا أنسى كلمة قالها لي وأنا أستدير مبتعدًا عنه..

قالها بصرخة مستنجد يخاف عليّ: لا تفعل ما أنت مقدم عليه.. أرجوك ارجع.. لا تحرر السّر.. !

خفت من محادثته خشية العواقب على الرغم من أني لا أعرفها، ولكن تحذير الكائن المخيف بالأعلى كان واضحًا في عينيه الحمراوين.

ثم وجدت عن قريب سجنًا آخر كبيرًا، بعدما التفت مجددًا إلى اليسار، واقتربت من باب السجن الحديدي فوجدت عرشًا رائع التكوين يوجد

على الجهة المقابلة داخل السجن.. له عظمة خاصة ولو لم يجلس عليه أحد.. يلمع رغم الظلام، الذي لولاه لأوجعتني عيناي من لمعانه!

اقتربت منه في تأمل بعدما أزحت الباب جانبًا مندهشًا بجماله، عليه درر كثيرة كل واحدة منها تساوي ثروة، وتساءلت.. كيف يكون هذا العرش بهذه القيمة الجمالية وتزينه كل هذه الأحجار الكريمة ويوضع في القبو؟! إن مكانه بالأعلى، وكان وراءه سيفين أثريين معلقين على الحائط عكس بعضهما، وجلست على ركبتيّ متفحصًا تركيبه في خضوع، ولكني وجدت تحته شيئًا..

مددت يدي لألتقطه.. إنها بطاقة.. قربتها من عينيّ محاولاً قراءتها في ذلك الضوء الخفيت.. فوجدت عليها نقشًا غريبًا لم أفهمه.. وضعتها في جيبي، ففوجئت بيدين تظهران خلفي لتضعا على عينيّ شريطًا أسود سميكًا، وتضغطان بشدة ، لم أر هذا الشخص ولكني أحسست بقوته في شد الشريط على عينيّ، وسيطرته على يدي عندما حاولت الفكاك منه، حتى أحكم الشريط على عينيّ، ثم أفقت فجأة في عالمي الذي أعرفه، ووجدت أمامي زوجتي وابني قلقين، ومازلت أشعر بنفس الألم في عينيّ! وكان جسدي فيه إرهاق شديد، فاستسلمت للنوم بسهولة..

كتب عاصم بعض الكلمات لديه، ثم أشار بيده أن الجلسة انتهت، ولم يعقّب على كلام حسن بشيء..

*****

رجع حسن وسناء إلى المنزل، ودخلت سناء إلى المطبخ لتحضّر العشاء بينما ذهب هو إلى حجرة النوم ليستبدل ملابسه، فوقع شيء على الأرض حينما شد منشفة من الدولاب.

نظر إلى ذلك الشيء.. ودق الرعب في قلبه بضربات سريعة مفاجئة مما رأى، كيف يحدث هذا؟ ودار عقله وزاغت عيناه غير مصدق، وامتدت يداه لتأخذ البطاقة التي عليها النقش الغريب التي رآها في القصر.. لقد كانت بين ملابسه.. !!

obeikan.com

obeikan.com

(٣)

تحولت حياته إلى أسئلة حائرة.. وانقسمت عليه نفسه من التساؤل.. وكأنه يعيش بين حياتين.. حياة يعرفها جيدًا وحياة غريبة غامضة مناقضة للواقع، يحاول تصديق ما فيها والتفكير بغية التفسير ولكنه لا يهتدي أبدًا، عالم غريب أماكنه مختلفة دائمًا، وإذا سرح بذهنه في عالمه الآخر وتقمص دوره وأحداثه.. فإنه يجد العالم الواقعي غريبًا عنه وكأنه هو الخيال، ويحاول التعايش معه، ويزيد هذا الإحساس تدريجيًا مع الأيام..

وذهب حسن إلى الطبيب للمرة الثانية، فأجلسه عاصم ليعرف آخر التطورات في حالته ويسمع منه، فأخبره حسن عن البطاقة التي وجدها بين ملابسه، وعن شعوره بالأيام والأشخاص والعالمين المختلفين، ذلك الشعور السخيف الذي يضايقه ويؤلمه أحيانًا.. ويرعبه أحيانًا.. ويجعله تائهًا غالبًا.

ثم بدأ يقص عليه ما حدث في نوبة من النوبات التي تصيبه.. فقال:

فرحت لمدة أيام لأن النوبات والغيبوبة والصرخات المهلكة أصبحت لا تصيبني، وهدأت نفسي لذلك.. ولكنني كنت واهمًا.. ففي اليوم الرابع على التوالي كنت جالسًا في بيتي مع زوجتي نتحادث في أمور عادية أمام التلفاز، إلا أنني واجهت ما أواجهه، فشعرت بخوف شديد خشية أن ما يحدث هو رجوع للنوبات مرة أخرى..

وكان اعتقادي صحيحًا – للأسف – فقد ارتخت عضلات جسدي.. وتغيرت ملامحي واتسعت عيناي من الخوف.. ثم سمعت ذلك الصوت المخيف يأتي من بعيد ويقترب.. أنفاس تتسارع باقترابها.. غير سريعة وغير بطيئة.. تُنذر بما سيحدث بعدها..

ثم سمعت الصرخة المستمرة المخيفة التي تجعل جسدي ينتفض من شدتها.. وتزوغ عيناي وأذهب إلى عالم آخر..

كنت هذه المرة في مكان جديد.. مهجور؛ صمته يدعو إلى الخوف.. وظلامه يزيدني رعبًا، نظرت حولي.. أين أنا الآن؟! إنني في مبنى.. واقتربت من السور فوجدته مكونًا من عدة طوابق، ولكن الأرض غير واضحة.. السماء منغلقة على المبنى! سوداء معتمة تشعرك بالوحشة أكثر وأكثر.. وتلفتُّ في هذا المكان الصامت وسرت فيه.. ما هذا المبنى؟ وجدت أبوابًا مغلقة لحجرات متقاربة، واقتربت من إحداها، فمددت يدي لأفتح الباب في تردد..

فإذا بي أرى خلال الظلام مقاعد، ونظرت إلى الجهة المقابلة من الحجرة.. فوجدت اللوحة التي تُشرح عليها الدروس، إنها مدرسة إذن، ولكن.. لماذا هي مهجورة؟ أم أني أتيت إليها في هذا الوقت من المساء؟ ولكن كل شيء فيها يوحي بأنها لم يدخلها أحد قبلي إلا منذ زمن طويل جدًا، وخرجت من الحجرة ومشيت في طرقاتها، وكأني أبحث عن شيء لا أعرفه.. ولا يمشي معي إلا الظلام الذي يثير المكان بالرهبة، وصوت قدميّ وهما تدقان على الأرض.

ولكني فجأة سمعت أصواتًا قادمة بسرعة نحوي، لا.. ليست الصرخة ولكن يبدو أنها أشياء تتحرك لا أميزها في الظلام، تبًا لهذا التيه الذي أعيش فيه..!

وياليتني استطعت التميز والفهم، ولكن فات الأوان.. إنهم قادمون بسرعة كبيرة.. أخذت مني الدهشة لحظة غبية حتى أجبرت رجليّ على الانطلاق، وجريت جريًا لا يتحمس له عداء ماهر.. فإما الجري أو الموت.

إنها فئران أو حيوانات أكبر من الفئران قليلاً، كبيرة الحجم كثيرة العدد، والأخطر في القصة كلها أن لها أنيابًا واضحة شرسة تقطر الدماء منها في صورة بشعة مقززة، كثرتها وسرعة جريها يجعلك تفقد أعصابك قبل أن تحدد ماذا ستفعل.

فاجأه عاصم بقوله ببساطة بعد صمت طويل: من الطبيعي أن الفئران تجري بسرعة..

رد حسن بحدة: ولكنها ليست بمثل هذا الحجم، ولا لها أنيابًا تقطر دمًا أيها الطبيب..

لم يبدُ على وجه عاصم أي رد فعل، شعر حسن أنه أمام لوحة خشبية مرسوم عليها وجه إنسان، فلم يجد ما يقوله إلا العودة إلى حديثه:

قاومت بقوة وجريت ودفعتها بعيدًا بكل إرادتي، ولكن في النهاية لم أستطع المقاومة أكثر، ووقعت تحت وحشيتها متهدم الجسد على الأرض، ما أفظع أن ينهشك شيء ذو أنياب وأنت حي! شعرت باحتفالها بالفريسة.. قاومت ثانية ووضعت يديّ على وجهي، ولكني لم أستطع إنقاذ بقية جسدي، واستمر هذا الوضع لدقائق مرت كساعات مريرة حتى وجدتهم يفرون بسرعة..

رفعت رأسي، وجدت الجروح تملأ جسدي ودمائي منثورة في كل مكان، وفأر غليظ ذو عين حمراء قادم إليّ ببطء.. ثم توقف أمامي حتى ضغطت على قدمي ووقفت.

آلام الجروح أضعفتني، ولكني تبعته عندما تحرك أمامي..

قاطعه عاصم: ألا تلاحظ أنك بخير وجسدك ليس به أي جروح؟

صاح فيه حسن: أنت لا تصدقني..

وفتح في عصبية أزرار قميصه وقال: ما رأيك في هذه؟

ثم خلع عنه القميص كلية، وأشار إلى ذراعيه وصدره ثانية:

وهذه؟ وهذه؟!

ثم همّ أن يخلع قميصه الداخلي وصاح: أتريد أن ترى بطني أيضًا أم اقتنعت؟!

قام عاصم من مجلسه واقترب منه ودقق النظر في جروحه الكثيرة، والتي تشبه الخربشات، وتتخللها آثار أنياب حادة غائرة.

ظل طويلاً متفحصًا ما يرى وكأنه يحاول حفظ شكلها في عقله، ثم جلس مكانه مرة أخرى، وقال بهدوء أغاظ حسن غيظًا لم يبده:

أكمل..

زمجر حسن زمجرة خفيفة، وأكمل قصته:

ثم حادت قدميّ معه إلى إحدى الطرقات، ثم تحول الفأر إليه.. نعم.. إنه نفس الشخص الذي رأيته في القصر القديم، حيث استطال جسده واختفت الأنياب، وأخذ شكله وهيئته - اللذان أعرفهما جيدًا - في الوضوح بعينيه الصارمتين الحمراوين، ولكنه كان يلبس ملابس عادية.. قميصًا وبنطالاً..

توقفت حينما رأيت هذا المشهد ناظرًا إليه بخوف، وأخذ يقترب خطوة بخطوة مني، ثم قال:

لقد أحسنت باحتفاظك بالسر الأول.. ويجب عليك أن تكمل ما بدأته..

لم أنطق بكلمة.. ولكنه أكمل كلامه بحزم وأمر:

اعثر على السر الثاني.. هنا تحت الكتاب.. وإياك أن تلتفت لأي شيء آخر أو تسمع لأحد..

واقترب مني مبتسمًا ابتسامة ماكرة، وقال:

إذا اتبعت أوامري كما أقول سأرحل عن عالمك قريبًا بعد أن تؤدي مهمتك، فلا تحد عما آمرك به.

ثم مشى بعيدًا وتركني دون أن يقول أي شيء أكثر من هذا، حركت قدميّ في تشتت.. أسير في اتجاه ثم أتراجع.. وفكرت في حيرة: إنني لا أعلم كيف أجد الكتاب الذي يتحدث عنه ولا أين هو.. ومشيت في اتجاه معين لا أعرف ما يميزه عن غيره..

ثم وجدت سلمًا.. درجات تنزل إلى أسفل، حيث إنني في الدور الأخير كما قلت، فنزلت أول درجة، ولكنني فوجئت بحدوث شرخ في السلم فتراجعت بسرعة، ثم تكسرت وسقطت عدة درجات منه محدثة ضجة لسقوطها، فأصبحت توجد فجوة بين الدرجات تعيقني عن النزول، حتى إني لا أستطيع القفز لأنها مسافة كبيرة، أخذ التفكير مني وقتًا ولكن فاجأني صوت أقدام تقترب في الدور الأسفل..

ثم ظهرت وسط الظلام هيئة إنسان يقف موجهًا رأسه تجاهي، إنه ينظر نحوي في تمعن وصمت..

نظرت له متفحصًا.. لا أستطيع رؤيته في الظلام.. لا أعرف أأتكلم معه أم ماذا؟ ولكنه اقترب من السلم فرأيت وجهه، إنه نفس الشخص الذي حذرني في قبو القصر المهجور!

لم ينطق هذه المرة.. كان ينظر لي بجمود دون أي تعبير على وجهه.. شيء مخيف.. بل كل شيء مخيف هنا، ووجدته قد مشى واختفى وراء الحائط، ثم عاد بعد ثانية ممسكًا بسلم خشبي، وحاول أن يسنده على آخر درجة من درجات السلم قبل الفجوة، كل ذلك وأنا أنظر إليه خائفًا من التفاعل معه.. لقد كان التحذير واضحًا، ولكني في النهاية نجحت في إمساك السلم وثبّته أمامي جيدًا، وبدأت في النزول ببطء.. وحين وصلت إلى منتصف السلم الخشبي؛ وجدت ذلك الشخص يمسك بالطرف الآخر من السلم ويحركه يمينًا ويسارًا بشدة محاولاً إيقاعي!!

نظرت إليه بقلق بالغ وإلى الفجوة الواسعة بين الأدوار، والتي يمكن أن أسقط فيها في أي لحظة.. إن يديه قويتين تستطيعان إيقاعي، ولا أستطيع ضربه أو حتى السيطرة على نفسي.. ولكني عزمت على النزول رغم الاهتزاز الشديد، فاقتربت يداه مني.. حاولت تفاديه، ولكنه وبكل شدة جذبني لأقع في الفجوة الواسعة بين الأدوار..

إنها لحظة صعبة شديدة على النفس.. أن يضيع منك الإحساس بالأمان وأنك ستسقط، ويجن عقلك من المفاجأة والسؤال المتكرر: ماذا سيحدث لي؟!

obeikan.com

(٤)

كنت قريبًا من السور الحديدي الذي يحيط الدور الأسفل الذي أوشكت أن أصل إليه، ووصلت قدماي بالفعل لولا هذا الرجل الغبي، لذلك - ولحسن الحظ - لم أسقط ولكن ارتطم رأسي بعنف بهذا السور الحديدي، ورأيته ينظر لي بنفس نظراته الجامدة، ولم أتمالك نفسي أكثر من هذا فوقع جسدي في هذا الدور ممسكًا رأسي متأثرًا من شدة الألم..

*****

فتحت عينيّ لأجد ذا العين الحمراء ينظر لي وعيناه تتفجران غضبًا، صارخًا: ما هذا الذي فعلته؟! ألم أحذرك من السماع أو التفاعل مع أي أحد؟!

قلت بخوف: لقد حاول في البداية أن يساعدني، تصورت أنه من أعوانك..

زمجر بغضب: ليس لي أعوان.. فأنت المساعد الوحيد لي.

ثم انخفض صوته وقال بثقة آمرة: ستسير على نهج أوامري فقط، ولن تحيد عنها.. أبدًا.. أفهمت؟! ولا تقل عني ذا العين الحمراء.. فأنا صاحب السّر..

واختفى من أمامي فجأة، وتبدل وجوده بملامح أعرفها جيدًا.. إنها سناء زوجتي تصرخ بقلق:

حسن.. حسن.. مع من تتكلم؟ ما الذي تقول؟!

وانتبهت للمكان الذي حولي، إنني في البيت ولا أكلم أحدًا من عالم آخر.. كان رأسي يؤلمني بشدة فوضعت يدي على جبهتي من الألم، حملقت سناء في جبهتي في دهشة مما رأت.. لقد كنت أنزف!!

كان عاصم خلال حديث حسن ينظر إليه بهدوء، دون أن يقاطعه ولو لمرة واحدة..

قال له حسن في نفاد صبر: وماذا بعد؟ ما الدواء الذي ستعطيني إياه؟ ما النصائح التي ستأمرني بها؟

فأشار له عاصم بيده أن الجلسة قد انتهت، وبعد خروجه رفع سماعة الهاتف ليتصل ببيت حسن لترد سناء على الجانب الآخر..

*****

خرج حسن من عنده وهو عازم على عدم الرجوع، فحالته مستمرة والأمر يسوء، ترى.. ماذا يكتبه هذا الطبيب الغريب في مفكرته؟!

وقال في نفسه برجاء: ألا يطمئنني؟ ألا يخبرني ماذا بي على الأقل؟

ودخل بيته فوجد زوجته تتكلم مع شخص ما عبر الهاتف معطية ظهرها للباب، لم يسمع ما قالته.. ولكن كان في صوتها بعض القلق، وما إن سمعت باب الشقة يغلق حتى نظرت إلى حسن بابتسامة، ثم قالت لمن تحدثه:

أشكرك بشدة.. لقد رجع إلى البيت الآن.

ووضعت سماعة التليفون بعد السلام، وقامت لتكلم حسن، ولكنه نظر إليها بنظرة غاضبة وقال:

من هذا؟ الطبيب، أليس كذلك؟

قالت بتوتر: ماذا بك؟ تبدو متعبًا للغاية، كنت أطمئن عليك وأسأله عنك، إنه طبيب متميز يبحث حالتك بعمق.

رد ولازال صوته الغاضب يرتفع:

ماذا قال عني؟ ولماذا يقول لك أنت ولا يخبرني؟ إنه يقول لك إنه يبحث حالتي ليشعرك بأنه طبيب جيد.. لا، لم أشعر بتحسن ولا بأي تقدم للأفضل منذ أن ذهبت إليه..

اغتصبت ابتسامة بسيطة وقالت: لا تقلق.. إنه يقول عنك كل خير، ولكن تابع معه الجلسات حتى ترتاح من العذاب الذي تمر به.

حاول الرد عليها بنفس نبرته الغاضبة.. كان يريد منعها من محاولة الاتصال بعاصم والاطمئنان عليه كأنها أمه، وأن يخبرها أنه لن يذهب لأي طبيب نفسي مرة أخرى، ولكن لم يظهر صوته، بل تحول إلى صرخات مخنوقة وأمسك برقبته جاحظ العينين..

ارتعبت سناء من منظره واضعة يديها على خديها في فزع.. إن جلد رقبته ينكمش وكأن شخصًا يخنقه بقسوة، وفجأة شعر بنفس الشيء الذي أحال حياته إلى دمار وعذاب.. نفس الأنفاس البشعة التي تنهش أذنيه ثم تختطفه إلى مكان آخر كئيب.. مظلم، إنها الآن خلف أذنه بالضبط.. وتركته للحظات طويلة متمنيًا الموت من الترقب والانتظار المرير، ثم بدأت الصرخة الحادة المرعبة.. وغاب عن العالم الذي حوله وتلاشت سناء من أمامه رغم أنه مدّ ذراعيه إليها مستنجدًا بها لتنقذه، ولكنه وقع على الأرض..

نظرت إليه في حالة من الرعب تملأ جسدها المرتعش، ثم أفاقت من ذهولها بسرعة وحاولت أن تُجلسه على الأريكة، وذهبت بسرعة لتتصل بعاصم لتسأله ماذا تفعل حتى يفيق..

*****

صحا حسن من نومه في الصباح التالي فوجد نفسه على نفس الأريكة، دخل إلى زوجته في المطبخ فقال لها:

ماذا حدث؟

قالت: أأنت بخير؟ بماذا تشعر؟

اقترب منها وعلى وجهه نظرة اعتذار بسبب غضبه ليلة أمس.

فقالت بتسامح وابتسامة تعلو وجهها: لا عليك.. فقريبًا ستعود إلى حالتك الطبيعية، وترجع حياتنا طيبة عادية كما كانت، اغسل وجهك واستعد لتناول الإفطار.

وبعد الإفطار طلب منها أن تكتب احتياجات المنزل لكي يخرج ويشتريها، فاليوم هو الجمعة ولا يريد أن يقضيه نائمًا بعد الغداء، حتى لا يفاجأ بكابوس مرعب أو أي شيء مثل هذا..

نزل إلى المحل التجاري وأمسك بسلة المشتريات ومشى وسط الأرفف المصفوفة عليها السلع، وبعد دقائق اصطدم بكتف شخص فنظر إليه نظرة سريعة وقال: آسف..

ولكن هاله ما رأى.. دقق النظر في هذا الرجل بشدة.. وحملق الآخر في عين حسن وشعر بارتباك فمشى بسرعة بعيدًا.. فصاح حسن وهو يهرول وراءه: انتظر.. انتظر.

وانحنى به الممر الذي به أرفف السلع ووقف مدهوشًا.. أين ذهب؟! لقد اختفى فجأة وكأنه لم يكن..

إنه نفس الذي حذره في قبو القصر، والذي حاول أيضًا إيقاعه من على السلم الخشبي في المدرسة المهجورة!!

وجرى حسن بين الممرات في قلق بالغ دون جدوى، حتى استوقفه شخص وقال بثقة:

هل ضاع منك شيء يا سيدي؟ أم أنك تبحث عمن كان يرافقك؟

قال بارتعاش في صوته: نعم.. نعم إنه شخص يلبس قميصًا بنيًا وبنطالاً أسود.. قمحي اللون يميل إلى البياض.. شعره أسود داكن.. أنفه أفطس وجهته عريضة..

قال الرجل بحيرة: لا أدري.. إن المكان مملوء بالزبائن ولكن يمكنك الاتصال به.. أليس معك رقم هاتفه المحمول؟

قال حسن بنفاد صبر: ليس صديقي ولا أعرفه أصلاً..

رد الرجل بقلق: هل سرق منك شيئًا؟!

وبعد عدة أسئلة ليس لها قيمة غير إضاعة الوقت خرج حسن ومازالت الدهشة والذهول يملآنه، ورجع إلى البيت وعلى وجهه نفس التعبير..

فرأت سناء ذلك وقالت بهدوء تطمئنه: لقد قال لي الطبيب إنك لست بمريض نفسي، إنها مجرد حالة تعيشها ستنتهي قريبًا بإذن الله.

نظر إليها في استسلام صامت، ولكنها فجأة قامت وقالت بصوت أجش له نبرة يعرفها حسن جيدًا:

لابد أن تنهي ما بدأته.. أنا صاحب السّر!!

(٥)

قام بسرعة وهرب من أمامها بينما هي متعجبة من فعله هذا، وقرر أن يذهب مساءً للطبيب مصرًا على أن يعرف كل شيء عما يحدث له..

وبالفعل ذهب إلى عيادته عندما حل المساء، نظر إليه مستفسرًا، فقال حسن:

أعرف أن اليوم ليس موعد الجلسة، ولكني لا أستطيع العيش دون أن أعرف ماذا يحدث! قالوا إنك طبيبًا متميزًا، فلا تتركني هكذا دون أن تطمئنني على نفسي.

تحركت عضلات وجه عاصم الثابتة، والتي توحي بأنه تمثال، لقد أراد أخيرًا أن يتكلم ويفتح فمه، فقال بهدوء:

اجلس لنتكلم بهدوء.

فجلس حسن، وقال عاصم بصوت خفيض: أنت بالفعل لست مختلاً نفسيًا.. هناك شيء غامض في قصتك.. لقد شككت فيك منذ البداية، وتوقعت أن ما تراه مجرد كوابيس في الغيبوبة التي تزورك كل عدة أيام، ولكني لم أر في حياتي كوابيس منتظمة حكايتها متسلسلة مرتبة بهذه الدرجة وأفرادها ثابتون.. وأنت البطل الذي ينفّذ دائمًا، فتوقعت أنك توهم نفسك بكل هذا وتصدق الوهم الذي يخترعه عقلك، وتساءلت.. لماذا يفعل عقلك بك هذا ويوهمك بشيء ليس له وجود؟!

فاتصلت بالمنزل وأخبرتني زوجتك أنك بالفعل تصاب بحالات غيبوبة وتقوم بأفعال غريبة.. تكلّم أناسًا غير موجودين وتحمرّ عيناك أحيانًا، وتخلط بين العالمين اللذين تعيش فيهما، ولكني أحببت أن أصبر عليك وأبحث حالتك أكثر لكي أدرسها جيدًا لأعرف ماذا يريد عقلك أن يقول بوضعك في هذا العالم؟ وكيف يحوّل الوهم أمامك إلى حقيقة بهذه القوة واليقين؟!

قال حسن بتعجب مشوب بالقلق: أيكون العقل الواعي مخادعًا لهذه الدرجة؟!

ضيق عاصم عينيه، وشعر حسن بأنه يتكلم في خبث: أحيانًا..

سرح حسن بذهنه قليلاً مفكرًا في كلامه.. ما معنى هذا؟

عاصم: والذي حوّل ما تقول للغز كامل أنني تأكدت من زوجتك أنك كنت في غيبوبة تامة أثناء آخر مرة، ولم تتحرك من مكانك، وأن ما يحدث فيك يتم دون تحركك من مكانك أو تغيير شيء في نفسك، أي أن الجروح التي تسببت فيها الفئران المتوحشة التي تحكي عنها لم تصب بها نفسك لتوهم بها الآخرين.. إذن فمن فعلها؟!

تراخى حسن، وقال: قلت لك إنني رأيت ذلك وما حدث لي كان حقيقة..

عقب عاصم غير مبالٍ بآخر جملة قالها حسن: لذلك.. أخبرني بما حدث بعد ذلك، ولتكن صبورًا معي كما أنا صبور معك، ولا تهمك

الجلسات، فإنني لا يهمني المال إذا قابلت حالة عجيبة مثيرة للاهتمام تستحق الدراسة مثل حالتك..

اعترف حسن وقال: على الرغم أني لم أخطُ أي خطوة للأمام.. إلا أنني أشعر ببعض الارتياح في متابعتك لي..

ضيق عاصم عينيه أكثر، ومال بظهره إلى الأمام قابضًا إحدى يديه على الأخرى في اهتمام، وقال: من قال إنك لا تخطو للأمام؟ فأنت في الطريق الصحيح.

شعر حسن بشيء داخله.. بعض الخوف والقلق من هذا الطبيب.. يبدو غامضًا دائمًا.. كالبئر الغائر المظلم الذي لا ترى من أعلى ما بداخله..

ثم أطلق آهة تعب وقال: أمس كانت آخر مرة أزور فيها ذلك العالم الآخر.. لقد كنت في المدرسة المهجورة التي كنت فيها آخر مرة، ولكني كنت في دور غير الدور الذي كنت فيه، نفس الشكل العام للمكان ولكن مع اختلاف التفاصيل، المكان أكثر ظلامًا ولكن فيه بعض الضوء البسيط والوضوح.. ركزت بصري في كل شيء لدقيقة.. وقررت بإصرار وشدة ألا أتعامل مع الشخص الذي شدني من على السلم إذا رأيته، كان شعوري غريبًا متأكدًا أني سأقابله مرة أخرى، وأني أقرب إلى الكتاب الذي يحوي السر هذه المرة..

مشيت في طرقات المدرسة.. الفصول خاوية بالطبع.. هذا الخواء يشعرني برهبة أحاول تجاهلها للخلاص من المهمة والخروج بسلام،

الأبواب شبه مغلقة.. الصمت في المكان مرعب أكثر من أي صوت يمكن أن يخيفني.. ولاحظت من يجلس في الظلام على أحد مقاعد الطلبة.. رأيته من خلال الشباك المفتوح للفصل الدراسي.. يوجه وجهه نحوي.. ينظر لي كما أنظر له، وتوقعت أن يكون نفس الشخص الذي أواجهه دائمًا خلال الظلام الذي يغطي كل شيء..

تجاهلته واستمررت في طريقي، وهو لم يؤذني ولم يفعل شيئًا أو يقل أي كلمة..

ثم اقتربت من حجرة مغلقة وفتحتها.. بها مكتب كبير ومكتبة صغيرة مثبتة على الحائط، يبدو أنها حجرة المدير.. ووجدت شيئًا مضيئًا بضوء خافت.. كتاب قديم يخرج منه ضوء أزرق هادىء على المكتب، اقتربت منه ومددت يدي إليه ببطء وأمسكته وتأملته.. وتساءلت من أين يأتي الضوء؟ ولمحت بطاقة تحته تشبه التي وجدتها تحت العرش في قبو القصر، ولكن مكتوب عليها رمز آخر.. تبدو كرسم لا كتابة، لم أفهمها أيضًا ووضعتها في جيبي وعاودت النظر إلى الكتاب مرة أخرى وتفحصت فيه.. تبًا لهذا الظلام الذي لا أرى فيه ما حولي جيدًا..

وبينما كنت على هذه الحالة إذا بشخص يهاجمني من الخلف بشريط أسود سميك يضعه على عينيّ بشدة وقسوة.. فأوقعني على الأرض.. نفس ما حدث في قبو القصر! وصحوت لأجد نفسي في عالمي هذا..

*****

ثم حكى حسن أيضًا عما حدث في المتجر، وكان عاصم مهتمًا بشدة بما يقول ويكتب بعض الملاحظات، ولم يفكر حسن في النظر إليها..

وخرج من عنده هادئًا إلى حد ما، ولكنه قلق خائف من استمرار العذاب الذي يعيشه، فهذا يسيطر على أعصابه بشدة ويدفعه إلى الجنون.

وخرج من البناية التي فيها عيادة الطبيب، ولكنه نظر حوله في دهشة.. هل تغيرت معالم الشارع؟!

obeikan.com

obeikan.com

(٦)

هذه المرة ملأه إحساس الرعب.. فكل ما يراه غريبًا، وسأل نفسه:

هل أصبحت لا أستطيع التفريق بين العالم الآخر والعالم الواقعي؟!

ونظر حوله ذاهلاً.. نعم إنه نفس الشارع ولكن معالمه تغيرت.. فهو أمام البناية التي فيها عيادة الطبيب عاصم فعلاً، ولكن أمامه على الجانب الآخر ليس النيل ولا السور الذي أمامه.. ولا السيارات التي ركنها أصحابها، ولكن يوجد أمامه طريق ضيق المسار يتسع لفرد واحد، الوقت ليلاً.. والظلام يغطي على الطريق.. على جانبيه مزروعات ولا يعرف إلام يؤدي، فطول الطريق وظلامه يدعوان للرهبة..

ووجد نفسه يسير فيه ويتلفت.. ليس حوله إلا مزروعات كثيفة قليلة الطول على الجانبين، ولا يرى غير ذلك، فمشى طويلاً وهو يفكر.. إلام سيؤدي هذا المسار الضيق؟ ولماذا يشعر دائمًا أنه أصبح بلا قرار، تتحكم فيه خرافات أو حقائق غريبة أشبه بالخرافات؟ وسأل نفسه في حيرة وخوف:

هل جننت؟! لا أحد يستطيع أن يحسم جواب هذا السؤال حتى إحساسي نفسه، فلم أعرف من قبل ما هو إحساس المجنون ولا طريقة نظرته إلى العالم من حوله..

ثم وجد خيال شخص من بعيد.. وقف مترددًا في الاستمرار في المسير، ترى من يكون؟ ولكنه انتهى إلى قرار أن ينهي هذا الطريق ليعرف ما فيه، لعله يأخذ منه دليلاً يثبت به أمام زوجته أنه ليس بمجنون، واقترب منه الشخص على جانب الطريق الأيمن الذي كان يقف فيه، فظهر وجهه غير واضح وسط الظلام، ولكن استطاع حسن أن يعرف من هو..

فسأله: ماذا تريد مني؟ من أنت ولماذا أراك في كوابيسي وفي الحقيقة وفي عالمي الآخر؟! لماذا تريد دائمًا أن تؤذيني؟

رد عليه بصوت خافت: لقد حذرتك عندما كنت في قبو القصر، لابد أن تفيق مما أنت فيه..

فتح حسن فمه بصوت أقل خفوتًا منه: من أنت؟!

تركه الرجل دون أن يرد ومشى بعيدًا ناظرًا إلى الأرض، لم يكلمه حسن مرة أخرى وتركه يرحل.. كان لديه إحساس بالثقة أنه سيظهر في حياته مرة أخرى، واستمر في المشي لدقائق حتى سمع صوتًا هامسًا كأنه ينبع من داخله، يقول:

"عندما تؤدي بك مسارات الحياة إلى طريق مظلم.. حالك السواد.. خافت ما فيه من أصوات، تسمع صوت أنفاسك الحائرة فقط وضربات قلبك تدب بوضوح في أذنيك فتشعر بالوحشة، الظلام يعصر قلبك.. ويجبرك على المسير فيه لتعرف كيف تكون النهاية.. أيكون

هناك مخرج يريحك من هذا الطريق ووحشته؟ أم ظلام أكثر قسوة؟ أو تهوي في مكان سحيق!!"

أحيانًا الاعتياد قد يؤدي إلى الجنون، وهو قد اعتاد على هذا الجنون وهذه الحياة الغريبة، وهنا أيقن أنه من المؤكد أنه أصبح مجنونًا لا يستطيع تفسير أي شيء يحدث داخل عقله، ولا فهم ماذا يحدث له..

وفجأة.. انتهى به الطريق إلى منحدر مظلم.. بل شديد الظلمة، فتوقف وشعر بالندم لأنه طاوع قدميه بالدخول في مسار لا يعرف نهايته، ولكنه ما إن التفت ليرجع حتى وجد أمامه الرجل الذي كان يحدثه منذ قليل، فرجع حسن خطوة إلى الوراء من المفاجأة وقد نسي أن وراءه منحدر، ولكن الرجل لم يعطه فرصة للتفكير؛ فدفعه بقوة وسرعة إلى الخلف!!

إنه الآن يواجه المجهول.. ما أبشع إحساس الإنسان وهو يسقط في الظلام من مكان مرتفع للغاية.. ولا يستطيع إنقاذ نفسه.. تلك اللحظة كفيلة بأن توقف القلب فزعًا من تيقنه بأنه هالك لا محالة.. وكلما ازداد هبوطه أكثر وازدادت سرعته نحو الأرض.. ازداد الفزع في شدته!!

*****

فتح حسن عينيه.. وقام بسرعة من على الأريكة التي كان نائمًا عليها.. نظر حوله وهدأ.. إنه مازال في العيادة وأمامه الطبيب عاصم..

فصاح: لقد رأيت طريقًا مظلمًا وظهر أمامي الشخص الذي حكيت لك عنه، فدفعني من أعلى منحدر.. و..

قاطعه عاصم مشيرًا إليه أن اهدأ، وضغط على كتفيه ليجلس، كان حسن يلهث بشدة ويتصبب عرقًا، استدار عاصم ليعطيه منديلاً، فقال حسن: لا.. شكرًا معي منديل.

فوضع يده المرتعشة في جيبه ليأخذ منديلاً فسقط شيء.. أنزل يده التي ازدادت ارتعاشًا على الأرض، خائفًا من أن يتأكد ظنه، ليمسك ما وقع منه..

ونظر إليه عاصم باهتمام وحسن يرفعهما أمام وجهه الخائف المملوء بالدهشة..

إنهما البطاقتان.. البطاقة التي وجدها تحت العرش في قبو القصر.. والبطاقة التي وجدها تحت الكتاب في المدرسة المهجورة!

انتقل إحساس القلق والخوف إلى وجه عاصم، ونظرا لبعضهما البعض في قلق ودهشة من المفاجأة..

(٧)

كل منهما تسمر وحملق في وجه الآخر لبرهة.. وقرأ عاصم ما يريد حسن قوله، فسأل ليتأكد: ما هذا؟!

كان حسن ساكتًا من المفاجأة مذهولاً، فرد بعد لحظة من الصمت: إنهما البطاقتان..

وتأكد الفهم لدى عاصم، فضغظ على كتفه برفق ليجلس، ولم يُبد للأمر دهشة أكبر من هذا، وتولد لديه اعتقادٌ أن يكون حسن هو من يصنع هذه البطاقات بنفسه، فقال:

ألا تلاحظ شيئًا؟ هذه المرة هي الأولى التي لم تسمع فيها الصرخة قبل أن تدخل إلى العالم الآخر..

فعلاً.. يسكت الصامتون أو معتادو الصمت دائمًا، ولكنهم إذا تكلموا نطقوا بالمفاجآت، لقد كانت هذه الجملة بمثابة قنبلة جديدة في عقل حسن الذي لا يتوقف عن التفكير، فجلس مفكرًا ومازالت علامات الدهشة والمفاجأة على وجهه، وأغلق عينيه بقوة كأنه يعصرهما محاولاً ترتيب ما يحدث لعله يفهم شيئًا.. لقد فقد القدرة على التحمل.

أخذ عاصم البطاقتين من يديه متفحصًا إياهما.. وهنا أسرع حسن الخطى إلى الخارج دون كلمة واحدة..

*****

دخل بيته متهالكًا من التعب.. وجرى نحوه ابنه فارس يريد احتضانه فجلس وضمه إليه، وقال فارس:

مر وقت طويل ولم تجلس معي يا أبي.. إنني أبلي بلاءً حسنًا في المدرسة.

فقبله حسن في رأسه، وخرجت سناء من الداخل باسمة، وقالت: حمدًا لله أنك رجعت.. لقد قلقت عليك، ما الذي أخرك؟

ولكن انقطعت الكهرباء فجأة.. وارتعب حسن مما رآه من أول لحظة انطفأ فيها المصباح وساد الظلام، فدفع ابنه بسرعة ونظر إليهما في هلع..

سمع صوت ابنه يقول: أبي إنني أخاف الظلام.. ضمني إليك.

واقترب منه بسرعة، ولكن حسن دفعه دفعة قوية حتى أنه سمع صوت اصطدام.. وصرخ حسن صرخة عالية فزعة..

*****

استمرت حياة حسن على هذا النحو في قلق وخوف مرتعش دائمًا، واستبد الحزن به لأن علاقته بأسرته تأثرت بما يحدث، وفكر في عاصم.. إنه يشعر بأن ذلك الطبيب وراءه سر، يعرف المعلومة منه ويصمت في غموض يزيد من حيرته.

وجاء موعد الجلسة.. فدخل عليه حسن في هدوء، فإذا به يراه ناظرًا محملقًا في إحدى البطاقتين اللتين تركهما له في آخر مرة، لم يشعر بدخوله.. كان شكله ينم عن الاستغراق الكامل في التفكير، لقد كانت شكوكه حقيقية إذن.. إن هذا الطبيب منشغل بحالته ويبحث فيها، حيث إنها استوقفته وأثارت دهشته، ولكن صمته الطويل وتعبيرات وجهه لا تفصح عن ذلك أبدًا..

وما إن شعر بوجود حسن حتى وضع البطاقتين بين أوراقه التي يضعها أمامه في عجلة واستقبله بابتسامة، وجلس حسن منشغلاً تفكيره مما رآه توًا.

نظر إليه عاصم متسائلاً، فرد عليه بنظرة تحدٍ صارمة، وقال:

على الرغم من اطمئناني بأنك منشغل بتفسير ومعالجة حالتي إلا أني أريد معرفة آخر ما توصلت إليه الآن، ولن أتراجع عن موقفي، ولن أمشي من هنا إلا إذا فهمت كل شيء.

قال عاصم بهدوء: سوف لا تفهم.

تعصب حسن بشدة: لا بل سأفهم.

رد عاصم بكلمات قليلة: إنني أشتبه أنك واقع تحت سيطرة ذلك الكائن بالفعل، المدعو صاحب السّر، وأنك تؤدي هذه الأفعال حقًا، وليست المسألة مجرد انتقال إلى عالم آخر أو غيبوبة!

اندهش حسن لما سمع، وشعر بشيء من الخوف في قلبه، فقال:

كيف؟! فكل النوبات التي تصيبني يكون حولي أشخاص أعرفهم، سواءً في العمل أو في المنزل، وكلهم يؤكدون أني لا أذهب إلى أي مكان آخر أو أسير أثناء النوم.

قال: هذه غيبوبة وليست مجرد نوم أو سير أثناء النوم.. إنك تسير بعقلك!!

أيقن حسن أنه كان لديه كل الحق في أنه لن يفهم، فسأل كمحاولة أخرى:

والبطاقتان؟ والشخص الذي دائمًا ما يريد إيذائي ورأيته في المتجر؟

ثم صمت للحظة وقال بتعجب شديد: وكيف أبني عالمًا في عقلي؟!

قال عاصم: لم تبنِ عالمًا.. إنما دخلته.. ألم أقل لك من قبل أن أحيانًا عقلك يخادعك؟! وقد يكون العالم الذي في عقلك حقيقيًا!

حسن باستسلام: لا أفهم شيئًا.. كما أني لم أتوقع أنك ستصدقني، لقد توقعت أنك ستقول إنني مجنون أختلق كل هذا وأصدقه.

انتقل عاصم إلى صلب الموضوع وقال: فلتكمل لي ما رأيت في النوبات المتتابعة، إنني أسهر كثيرًا مفكرًا في كل كلمة تقولها، حتى إن قصتك أصبحت الآن محور اهتمامي كله!

قال حسن بقلق: لقد حدث شيء مخيف لي أول أمس حيث انقطع التيار الكهربي في المنزل، فرأيت وسط الظلام عيون زوجتي وابني بيضاء تشع ضوءًا أبيض مخيفًا! حتى إني دفعت فارس ابني عني بصورة سريعة وتلقائية من المفاجأة، فاصطدم بالمنضدة الصغيرة التي أمام الأريكة التي كنت جالسًا عليها ثم وقع على الأرض، ثم رجع التيار الكهربي فرأيت عيونهما تبدو طبيعية، ولكن كانت عينا سناء مملوءتين بالغضب، وقالت لي:

لقد أصبحت خطرًا على ولدك.. كيف تدفعه هكذا؟!

قلت بسرعة محاولاً ترميم موقفي: أنا آسف للغاية.. لم أقصد.. لقد رأيت..

صرخت سناء: تبًا لما تراه!

وحاولت جذب ابني مرة أخرى، ولكنه ابتعد عني خائفًا أن أؤذيه..

عاصم: يبدو أن العالم المظلم الذي يخيفك جعلك ترى أوهامًا في الظلام..

وأراد أن يقص للطبيب ما رآه في آخر نوبة تملكته، ولكن رن جرس التليفون الخاص بعاصم، فاستأذن وقام من أمامه وخرج، فانتهز حسن الفرصة ليبحث في الأوراق التي على مكتبه، التي خبأ بها البطاقتين لعله يفهم شيئًا..

حرك عينيه سريعًا بين أوراقه ملتمسًا أي شيء.. ورأى ما رأى، ولم يتوقف كثيرًا عند التفكير، فحاول بسرعة إعادة كل ورقة إلى مكانها ورجع إلى مكانه، ثم دخل عاصم بعد لحظة إلى حجرة المكتب مرة أخرى، وحاول حسن التمثيل أمامه بأنه مستعد لإكمال الجلسة، ولكن استوقفه شيء..

إن عاصم ينظر إليه بتحدٍ وغضب، وتحوّل وجهه في ثانية إلى وجه الرجل الذي يطارده بالأذى كلما ذهب إلى العالم الآخر، وقال:

أهكذا تضيّع ثقتك بي؟! هل سينفعك امتثال أوامر صاحب السّر؟!

فتح حسن فمه في ذعر ودهشة ولم ينطق..

obeikan.com

(٨)

شرد بعيدًا في تخيلات أرعبته: أيكون الأشخاص الذين أراهم في العالم الآخر حقيقة؟! أيكون هذا الطبيب واحدًا منهم؟! أم أنه هو الذي يتلاعب بعقلي؟!

كان عاصم ينظر إليه بهدوء لأنه اعتاد على مثل هذه الحالات ولم يعد يندهش، فقال: ماذا بك؟ انظر إلى عيني.. بماذا تشعر الآن؟

أرجع حسن عينيه إلى النظر إلى طبيبه فوجده بنفس صورته العادية، فقال:

يبدو أن كلامك صحيح، إن الضغط العصبي والإرهاق الدائم الذي أعيش فيه جعلاني أتوهم أشياءً..

عاصم: فلتكمل لي..

قال حسن بحزن: هذه المرة كدت أن أُقتل، إن هذا الرجل الذي يظهر لي في العالم الآخر لا يتوقف عن محاولة إيذائي والتخلص مني.

وأسلم رأسه إلى الوراء ليكمل له مايراه: دخلت غارًا له فتحة كبيرة.. بل عملاقة، كان مظلمًا ولكني كنت أسير فيه بثقة كأني ذاهب لهدف ما، وبعد دقائق من السير.. وجدت على بعد مني ضوءًا أبيض هادئًا، فمشيت نحوه حتى وجدت غارًا آخر أصغر، واكتشفت أن الضوء الأبيض مصدره ممر طويل يشع لمعانًا رائعًا، إذ إنه مصنوع من

الجواهر والماسات البيضاء، ورأيت بريقه أقوى حينما دخلت الغار، إنه من أروع المناظر التي رأيتها في حياتي!

مشيت في الممر والتفتّ حولي من الدهشة.. إن الممر يتخذ طريقه ليصل بين فتحتين محددتين، فهو جسر يربط بين المكان الذي كنت فيه وفتحة أخرى لا أعلم إلى أين تؤدي، والجسر تحته هوة سحيقة، وجدران الكهف تلتصق بها الجواهر المتلألئة باهرة الجمال مختلفة الألوان، والتي تعطي منظرًا بديعًا، فتحت فمي مدهوشًا.. أهي مغارة على بابا؟!

أكملت سيري حتى وصلت إلى الفتحة الأخرى، فوجدت أنها تؤدي إلى ممر آخر إضاءته خافتة، ولا أعلم من أين تأتي هذه الإضاءة الخافتة في هذا العالم وكل مكان زرته فيه! الممر ضيق جدًا، وعلى جانبيه تماثيل مصفوفة متلاصقة عن يميني ويساري، وكلها لها نفس الشكل كأنها توائم، وهي لإنسان ممتلىء الجسم رقبته غير واضحة النحت، وكأنه مجرد رأس مثبت مباشرة على جسد!

نظرت إلى التماثيل وفحصت شكلها، إن هذا التمثال غريب حقًا.. يبدو لرجل مريض أو معتوه.. أو مخنوق.. لا أدري، فعلى وجهه تعبير المحنة والضيق.. لا يهم، واستمر سيري لمسافة ليست بالقصيرة، ثم سمعت صوتًا.. لم أحدد مكانه بالضبط.

إنه صوت حجر يتحرك، توقفت وركزت ذهني في ذلك الصوت.. وأدركت مصدره حينما رأيت أحد التماثيل المصفوفة والمتلاصقة يحرك رأسه! وينظر لي بنظرات غريبة ليست نفس النظرة التي تعلو وجوه بقية التماثيل، ولكنها نظرة أعرفها جيدًا.. فيها شيء من التحدي والغضب، وتكسّر التمثال بصوت أرهق أذني بشدة، وخرج منه ذلك الشخص الذي لا يمل أبدًا من مطاردتي بكل سوء.. ووقف أمامي.

فصحت فيه: من أنت؟ وماذا تريد مني؟

قال بشفقة: اسمي سالم.. إنني لا أريد إيذاءك.

قلت بعناد: وكيف تفسر أنك كنت تريد إيقاعي من السلم الخشبي في المدرسة المهجورة؟ وأنك أوقعتني من فوق الجبل في مكان آخر؟

فاجأني بحركة سريعة وقوية ممسكًا برقبتي ضاغطًا عليها، وصدم جسدي بقوة في أحد التماثيل، حتى أني تصورت أنه سينكسر من قسوة ضغطه على رقبتي وجسدي، وقال بحزم شديد: لا بد أن تموت.. يجب أن أقتلك!

لم أستطع الدفاع عن نفسي في البداية من قوة وسرعة يديه، ولكني تمالكت نفسي بعدها وحاولت بكل قوتي إبعاد ذراعيه عني، ولكنه واجه ذلك بقوة أكبر في مهاجمتي والضغط على رقبتي، فأيقنت بالموت المحقق.

ولكني بعد لحظات من الألم والخوف أفقت في وعي تام على عالمي الذي أعيش فيه، فحمدت الله على نجاتي من براثن ذلك الرجل.

عاصم: هل شعرت بألم في رقبتك؟

حسن: نعم..

ثم استكمل بعد برهة: ولكن بعد فترة وجيزة جدًا إذا بي أشعر أن عقلي كأنما يُسحب مني، أو أن روحي وعقلي يُنتزعان مني انتزاعًا إلى مكان آخر، إحساس غير مؤلم حقًا ولكنه غريب، لم أتوقع أن أشعر به من قبل..

وبعد لحظات.. وجدت نفسي أعود إلى العالم الآخر في الممر، لأجد صاحب السر يضغط بيد واحدة على رقبة من يُدعى سالم بغلظة وبهدوء وثقة، في مشهد مشابه إلى حد كبير لما كنت عليه، ورفعه من رقبته ببطء مذل ثم تركه، فوقع سالم على الأرض ممسكًا رقبته في ألم وهو يسعل، حتى إنى شعرت بالشفقة نحوه، وكان صاحب السر ينظر إليه بعينيه الشريرتين، ثم تحول نحوي وقال:

ابحث عن السر الثالث في التمثال الذهبي.

قال هذه الكلمات الغامضة ثم مشى بعيدًا واختفى وسط الظلام.. فمشيت مكملاً طريقي في الممر متخطيًا سالم، كان يرمقني بنظرة فيها ألم وعناد ومراقبة في نفس الوقت، ثم طال بي ذلك الممر.. ترى أين ذلك التمثال الذهبي؟

وما إن سطع في ذهني هذا السؤال حتى رأيت نهاية الممر من بعيد، وفي منتصفه بريق باهر جذاب لتمثال ذهبي مشابه لكل التماثيل في شكله، ولكن الذهب أضفى عليه بهاءً وروعة.

فأسرعت الخطى حتى وصلت إليه، وتحسسته رغمًا عني من شدة جماله مفكرًا أين يكمن سرّه، وأحسست وأنا أضع يدي على الرأس أنه غير ثابت ينزلق بيسر يمينًا وشمالاً، فرفعته إلى أعلى.. وإذا بي أتراجع بسرعة جاحظ العينين وأقع واهن الجسد من المفاجأة..

ثعبان ضخم بشع المنظر مخيف يظهر لي فجأة من تحت الرأس.. لم أر ثعبانًا ضخمًا كهذا في حياتي حتى في برامج عالم الحيوان!

وتشتت ذهني غير مصدق.. كيف يكون بهذا الحجم ويخرج من تمثال يقارب حجم البشر؟!

ونظرت إليه في رعب.. إن له نظرة كافية أن تقتل الفريسة قبل حتى أن ينقض عليها، وأخذت أتأمل سُمك جسمه في ذهول ويقين بالهلاك، من المؤكد أن له عضلات قادرة على تهشيم عظام جسدي بكل سهولة إذا ما التفّ حوله!

واستمر خروجه من التمثال الذهبي وأنا ملقى على الأرض محملق العينين، أتراجع زحفًا للخلف في بطء واستسلام..

obeikan.com

(٩)

لم أكن أعرف أن الوقت يمكن أن يتوقف في اللحظات العصيبة هكذا كما توقف قلبي رعبًا كهذه اللحظات، التي مرت مرورًا ثقيلاً بشعًا على نفسي، نزل الثعبان بجسده على قدميّ فلم أستطع التحرك من شدة الخوف.

هل جربت إحساس الاستسلام من شدة الخوف من قبل؟!

ثم تحرك على جسدي المنبسط على الأرض حتى وصل إلى صدري، كاد ثقله يكسر قفصي الصدري وينفجر قلبي معه، واستمر ذلك الوضع في تفتيت أعصابي ونفسي حتى تحرك بعيدًا وتركني..

أخذت أنفاسي مذهولاً.. هل نجوت حقًا؟!

يبدو أن استسلامي جعلني لا أتحرك فلم يشعر الثعبان بأي حركة مريبة؛ لذلك وببساطة لم يؤذني.. ثم وقفت مرة أخرى ونظرت ثانية إلى التمثال بعد أن رفعت الرأس لأعلى، فوجدت ما أريد الوصول إليه.. إنه السر الثالث.. بطاقة عليها نقش غريب أيضًا.. ولاحظت أن النقوش الثلاثة مختلفة إلى حد ما ولكنها من نفس النوع، توحي باقتراب الشبه بينها وبين الرسوم القديمة على جدران المعابد، أو قد أكون مخطئًا، فيمكن أن تكون أبسط أو أعقد منها قليلاً.. لا أعرف.

وأمسكت بها ووضعتها في جيبي، وظهر من ورائي سالم يقول في غضب وغيظ:

غبي.. أحمق.

وبعدها فورًا هوجمت من الخلف - كالعادة - ووضع شخصٌ ما الشريط السميك على عينيّ وأنا أسمع صرخات سالم: لا.. لا..

عجبًا لهذا الشخص.. يؤذيني تارة ويتألم لأجلي تارة أخرى.

قال عاصم: أمتأكد أنها تشبه الرسوم أو الكتابات القديمة التي توجد على جدران المعابد؟

حسن بشيء من الشك: أعتقد هذا..

عاصم بثقة: لكنها لا تتبع أي لغة من اللغات القديمة، لقد احترت مثلك، ترى ما سرها؟!

وسكت قليلاً ثم قال: أكمل.. يمكن أن أمد وقتي معك، فالمريض الذي بعدك اعتذر، لذلك لدينا مساحة أكبر من الوقت.

قال حسن بغموض: ولكن الغيبوبة التي تليها كانت من أغرب ما رأيت حقًا، لقد كنت في أرض فضاء.. ولا أقصد مكانًا خاليًا فقط، ولكني أقصد أني كنت في بقعة فضاء حرفيًا!

ظهر عدم الفهم على وجه عاصم، فقال حسن مفسرًا:

لقد دخلت مكانًا حجريًا كل شيء فيه مكوّن من الحجارة، يشبه الكهف الصغير، وله سلم منحوت في الأرض إلى أسفل.. الوقت ظهرًا، ضوء الشمس قوي بالداخل.. يبدو أنه توجد فتحات في أعلى الكهف الصغير بما يسمح بدخول هذا القدر الكبير من الضوء، ولم تكن درجات السلم كثيرة، كان المكان خاليًا لا يوجد به شيء، ولكني وجدت فتحة في جدار الكهف في الجهة المقابلة.. فتحة كبيرة يمكن أن يمر منها إنسان إذا ضمّ إليه كتفيه.. ووصلت إليها ونظرت فيها.. إنها تؤدي إلى مكان سحيق.. إنني أعلى جبل إذن، ولكن الغريب وغير القابل للتصديق في هذا كله أني وجدت سوادًا شديدًا بيضاويًا أمامي.

فالسواد أمامي وسفح الجبل شاهق الارتفاع تحتي، وسمعت صوت سالم خلفي يقول: ليست غيبوبة استدعاك فيها صاحب السر، إنني من استدعاك هذه المرة.

بلعت ريقي وسألته بقلق: وماذا تريد مني؟

قال: أتعرف ما هذا السواد الذي أمامك؟ أتعرف لماذا كل المكان يبدو عاديًا، وهذه المنطقة الصغيرة التي لا يتعدى قطرها المتر هي مجرد سواد.. سواد فقط؟!

شعرت بالقلق وعدم الفهم..

قال بثقة رافعًا رأسه قليلاً لأعلى: هذا حيّز ضيق تنعدم فيه الجاذبية ولا تستطيع أشعة الضوء أن تمر خلاله! وهو مكان يتغير في الكرة

الأرضية، فنراه في مكان آخر في العالم كل عدد متغير من السنوات، ويتوقف على عوامل أخرى لا نعلمها، فأحيانًا يتغير بعد مئة عام أو بعد عشر سنوات.

وابتسم ابتسامة بسيطة وخبيثة، وقال: شيء غريب أليس كذلك؟! فخيالنا يختلف كثيرًا عن واقعنا، ولكنهما أحيانًا يلتقيان في نقطة ما..

قلت: وما دخلي أنا بكل هذا؟ ولماذا أتيت بي إلى هنا؟

قال بسرعة وثقة: لأنه المكان الوحيد الذي ستفهم فيه كل شيء.

وما إن أتمّ جملته حتى دفعني دفعًا نحو ذلك السواد البيضاوي الشكل.. ودخلت إلى المجهول..

*****

لم أفهم ما قاله منذ لحظات أو ربما ساعات، لا أعلم.. لقد ضاع مني الإحساس بالزمن حينما ضاع الضوء، لست عالمًا فيزيائيًا.. ولكني أعرف ببساطة أن العالم كله لو تحول إلى سواد لا يوجد فيه أي ضوء أو شمس؛ فكيف سيكون هناك إحساس بالزمن، خاصة لو تصورت نفسك في عالم آخر؟

أو ربما حدسي الداخلي هو الذي يحدد لي الوقت الذي أشعر به.. ربما..

وما يحيرني أني الآن أسبح في مكان ليست به جاذبية ولا ضوء ولا زمن.. فكيف سأظل حيًا؟! أليس الضوء الذي يأتي من الشمس هو الذي يعطي الحرارة للأرض ولنا، ومن غير وجود الضوء والحرارة نموت؟

وبدأ لديّ إحساس فريد بالطيران بعدما دفعني سالم في السواد، ولكني لا أرى شيئًا مطلقًا، وضاع وجودي في هذا الوجود أو هذا العدم.. لا أدري شيئًا، لقد أصبحت جزءًا من الظلام حيث لا خيار آخر، أجربت قبل ذلك إحساس أنه لا يوجد شيء تدبّ عليه قدماك؟! ذلك الإحساس بالنشوى والجزع في نفس الوقت؟ فزع يأتي إليك من قلقك من إجابة سؤال ملح للغاية رغم جمال الطيران: إلى أين سأذهب وتدبّ قدماي؟!

ما هذا الضياع الممتزج بالحرية الطاغية بالخوف؟! فتجردي من كل ما يحدد حياتي في تلك اللحظة يجعلني فارغًا من الداخل.. إحساس هائل بالخواء، فقط أريد شيئًا يحتويني غير هذا السواد والضياع.. أريد جدارًا أستند عليه لكي تهدأ خفقات قلبي ويرتاح عقلي من التفكير ولو للحظة..

والسواد الذي كان لا يتعدى سمكه المتر، وكأنه بوابة لعالم آخر، أطير فيه في ظلام شديد.. يرفض الضوء والجاذبية والزمن.. يرفض كل قوانين الطبيعة التي أُجبرنا على أخذها كمسلمات، وما هذا الاتساع؟! أشعر بفضاء فسيح للغاية دون أدنى مبالغة، وكأني أصبحت روحًا هائمة ليس لها هدف أو عنوان، وشيئًا فشيئًا اعتاد جسدي على

الظلام وعدم الجاذبية، فلم أعد تائهًا أتخبط كما حدث في البداية، وتحكمت في جسدي طائرًا شاعرًا بهدوء نفسي، واستبدل جسدي اعتماده على العين ليرى ويفهم بحاسة أخرى لم أفهمها، إننى الآن أرى وأشعر دون وجود ضوء.. فاتجه إحساسي إلى أني سأدبّ على أرض ما قريبًا.. لا أعرف بعد ثوان أو دقائق أو ساعات أو أيام.. ولكنه قريبًا.. وفقط.

وبالفعل وجدت قدمي تلمس شيئًا وتحسسته بها.. إنها أرض فعلاً! وضغطت بقدمي عليها محاولاً الاستقرار حتى لا يجبرني انعدام الجاذبية إلى الطيران بعيدًا.

وسمعت أصواتًا حولي لصرخات لا أفهم مغزاها، أهي أنين وعذاب؟! أم رعب؟ أم هي بداية لشيء؛ كما هو الحال مع الصرخات الشديدة التي تمزق أذنيّ في كل مرة لتنقلني إلى عالم آخر؟

ورأيت أمامي..

وسكت متفاجئًا، ثم قال كأنه يصف شيئًا يراه الآن لأول مرة: عجيب هذا العالم بشدة، أأرى فيه وأسمع؟! كيف وهو عالم ليست به موجات ولا يستقبل الضوء الذي هو السبب الرئيسي للرؤية؟!

ضمّ عاصم يديه إلى بعضهما البعض في اهتمام شديد، وسأل:

ماذا رأيت؟

(١٠)

حسن: إنه مكان ممتلىء بالرمال الرمادية اللون.. السماء سوداء، وكأني سقطت على كوكب بعيد مهجور ليس به إلا الرمال، ولا أعلم هل هي رمادية لضعف رؤيتي ولعدم وجود ضوء واضح أم إنها رمادية بالفعل.. ولكن لا يهم اللون الآن.

إنني أشعر أن ما أقوله حقيقة أمامي بمجرد ذكري له..

فبعد سيري قليلاً رأيت قومًا في منتهى النحافة، أجسادهم مرنة لدرجة أنك تتصور أنهم بلا عظام، يجلسون في وديان بلا أغطية أو أسقف أو بيوت مثلنا، يشبهون مهرجي السيرك في تصرفاتهم، سرعتهم عالية في الجري والتسلق والحديث، ولكني لا أسمع حديثهم ولا أفهم مغزى حركاتهم..

رأيت أحدهم يحرك ساعده في الهواء بصورة مستقيمة ثم يرتفع قليلاً في خط رأسي ثم يعيد أول خطوة ثم ثاني خطوة وكأنه يرسم شكلاً ما، ثم ارتفع على هذه الخطوط دون أن يسقط أو يهتز قلقًا.. وفهمت حينها.. لقد كان يرسم سلمًا، هل يمكن تطويع الهواء ليتشكل ثم يثبت ويتصلب ليصير أي شيء تصنعه الأيدي؟!

هل إذا كنا في عالم آخر ستكون قوانين الطبيعة مختلفة إلى هذا الحد؟!

الهواء الخفيف الذي لا يمكن مسكه عندنا هو كالصلصال عندهم!

لا أفهم هل هو عالم مخفي عن عالمنا ومقارب لنا، أم إنه كون آخر مختلف عن كوننا لا نعلم عنه شيئًا؟ يقال إن الكون الذي نعيش فيه هو كرة عظيمة هائلة المساحة، فهل انتقلت إلى كرة أخرى؟!

ثم اختفيت من ذلك المكان وظهرت في آخر.. ورأيت فيه قومًا متقاربين من بعضهم البعض، لا أعلم هل من الخوف أو الإحساس بالبرد الشديد؟ على الرغم من أني لا أشعر بأي خوف أو برد، يسكنون في جماعات في قباب عالية صخرية تشبه الجبال في عالمنا ولكنها حادة للغاية، هم كثيرون جدًا ولكنهم لا يفعلون شيئًا غير أنهم يتناسلون ويأكلون ويشربون، وكل ساعة يقضون على فرد منهم لا أفهم لماذا.

قاطعه عاصم: ألا ترى أنك انتقلت بين مواقف وكائنات أو أناس - كما تقول - ولم يرك أي أحد منهم، ولا حتى شعروا بوجودك؟

سرح حسن بذهنه قليلاً، وقال: نعم أنت على حق، لقد كنت أتحرك وسطهم كأن بيني وبينهم حاجزًا شفافًا، أو كأني شبح لا يُرى..

زادت الحيرة على وجه عاصم المصفر من شدة الإرهاق، وأشار له بيده أن أكمل..

حسن: ثم سطع ضوء باهر جدًا ذو درجة عالية من البياض النقي في عينيّ، وتحركت أمام عينيّ بسرعة بالغة تلك الأضواء، وكنت أميزها بشيء من الصعوبة، وسمعت خلال ذلك صوت تسبيح واضح..

ودرت حول نفسي فوجدت على هذا الاتساع أماكن بها ارتفاع صغير يشبه المناضد، ولكنها أصغر، منتشرة على بعد مني، مكونة من مادة رمادية أيضًا، حادة رفيعة جدًا وشفافة مثل الزجاج، فاقتربت من هذا الوادي وبدأت أسمع الصرخات ثانية تزداد ارتفاعًا في أذنيّ.

وعندما وصلت إلى الوادي وجدت تلك المناضد تتشكل عليها الرمال على شكل النقوش التي وجدتها في البطاقات الثلاث؛ التي كانت في قبو القصر والمدرسة المهجورة والتمثال الذهبي في الغار.

نظر عاصم في الناحية الأخرى سارحًا بذهنه محاولاً تخيل المنظر الذي رآه حسن.. الرمال متشكلة على هيئة الرسوم أو النقوش التي وجدها في البطاقات!! وسكت حسن مفكرًا هو الآخر مستعيدًا في ذهنه كلمات سالم الأخيرة: "لأنه المكان الوحيد الذي ستفهم فيه كل شيء"..

ثم نظر عاصم إليه بهدوء يغلب عليه بعض الشك، وقال:

ألم تتعرف من أين كانت تأتي تلك الصرخات التي كنت تسمعها؟ وهل كانت صرخات موحدة النبرة أم مختلفة متداخلة معًا؟

حسن: لا كانت تعبّر عن انفعالات مختلفة، ولكني عندما اقتربت من المناضد.. اكتشفت أنها تخرج منها.

اعتدل عاصم في جلسته بسرعة واهتمام شديدين، وقال بصوت متفاجيء: أمتأكد أنت من كلامك هذا؟!

قال حسن مترددًا: نعم متأكد.. ولكنك أفزعتني بصوتك وسرعتك في الرد.

وقبل أن يتمّ حسن جملته؛ ارتفع صوت عاصم بحماس: إنها شفرة.. شفرة سرية لا نفهمها!

حسن وقد ازداد قلقه وتردده: ما معنى هذا؟ لا أفهم شيئًا.

غاب عاصم ببصره بعيدًا، وقال: لقد أخذت حالتك من تفكيري ووقتي الكثير، إنها حقًا حالة مثيرة للغاية، فمن كان يصدق أن يحدث كل هذا؟!

امتلأ حسن غضبًا، وقال: أرى أنها حالتي أنا، ولابد أن أفهم ما يحدث.

رجع عاصم ببصره إليه وقال: إن الأصوات لها شكل لا نراه في الهواء، صوت الحيوانات المختلفة.. صوت الصراخ.. الهمس.. الانتحاب.. صوت الرعد.. دبيب النمل.. أصوات الرياح، أي أن كل نبرة صوت يقابلها شكل معين، خاصة إذا اختلفت درجات الصوت وأنواعه؛ فإن الشكل

يختلف باختلاف الصوت نفسه *..

وسكت مفكرًا ثم قال: الصرخات إذن تشفّر لشيء معين لا نفهمه تريد أن تخبرنا به، تشكّله نبراتها على الرمال التي رأيتها، ويبدو أن ذلك شيئًا هامًا جدًا، خاصة وأن صاحب السر يأمرك دائمًا بجمع تلك البطاقات في رحلاتك إلى العالم الآخر.

سكت حسن وقد بدا عليه عدم الفهم أكثر، فما زاده التفسير إلا غموضًا وحيرة..

رد حسن وهو مشتت: أعتقد أني فهمت إلى حد ما..

ومرت لحظات صمت بينهما..

عاصم: دع لي مسألة التفكير في الشفرة.

فقال حسن باستسلام: وما الحل إذن؟ لا يهمني كل ذلك، فما يهمني أن أخرج مما أنا فيه بأي شكل.

لمعت عينا عاصم، ونظر إليه بابتسامة وقال:

ألم تلاحظ أنك دومًا تنفذ أوامر صاحب السر دون مناقشة؟ فما الذي يثبت لك أنك بعد كل هذه الرحلات في العالم الآخر ستخرج منه،

---

* هذه حقيقة.. يمكننا بالفعل رؤية شكل الصوت، حيث لكل صوت شكل معين، وهذا علم يسمى Cymatics

بعدما تُخرِج الأسرار والبطاقات التي يريدها؟ فكل رحلة تؤدي بك إلى رحلة أخرى.. ولا تنتهي المتاهة.

أدار حسن رأسه في اعتراض ونفاد صبر: وما العمل؟

عاصم: أن تقف ضده وتقول له: لا، لن أنفذ لك ما تطلبه، فحالة الخضوع والذل التي تملؤك، والخوف واحمرار عينيك؛ ما هو إلا نتيجة أخذك أمره بتسليم دون مناقشة.

قال حسن وقد ارتفع صوته بغضب: ولماذا لم تقل لي ذلك منذ البداية؟ ولماذا أخذت كل هذا الوقت لكي تخبرني أن الحل في العصيان؟

عاصم: كما قلت لك؛ إني كنت أعتقد أنك تتخيل أشياء يخادعك بها عقلك، كما أني حتى الآن لا أعرف كيف تنتقل بين عالمين! فأنت إنسان سويّ ليس بمريض، فإما أنك تؤلف هذه القصة، وذلك أستبعده بعدما جاءتك الغيبوبة أمامي في مرة من المرات، وتأكدت من زوجتك أن ما يحدث لك يتم دون تحركك من مكانك أو تغيير شيء في نفسك، ومن المستبعد أيضًا أن يُدخل أحد نفسه في متاهة وتمثيلية مع طبيب نفسي بهذا الاستمرار، أو أنك تنتقل حقًا بين عالمين، وذلك شيء مبهم لا أفهمه.

هدأت ثائرة حسن واختنق صوته، وقال بخوف: وماذا ستكون العاقبة إذا رفضت تنفيذ ما يأمرني به؟ ماذا سيفعل بي؟!

حار عاصم وظهر على وجهه الخوف.. ترى ماذا سيحدث إذا رفض حسن ما يأمره به صاحب السر؟!

(١١)

وصل حسن إلى البيت في حالة من الشرود مفكرًا فيما حدث حتى الآن وفيما قاله الطبيب، وما إن دخل المنزل حتى سمع سناء تقول لابنه:

ادخل إلى غرفتك، سأكلم والدك في أمر هام..

ووقفت وقالت في حزم موجهة كلامها إلى حسن: أعرف أنك مشوش العقل بسبب الضغط النفسي الذي تمر به خلال هذه الفترة، وأنك تنسى كثيرًا وتختلط عليك الكثير من الأمور، ولكن حدث شيء لابد أن تفسره لي.. وفورًا!

شحب وجهه، وجلس بسبب هذه المقدمة الغريبة وقال: ماذا حدث؟

قالت ومازالت نظرة الحزم قوية في نبرتها: ماذا ترى في أحلامك؟ وماذا ترى في غيبوبتك؟ وماذا يحدث فيها؟

سكت مطرقًا رأسه إلى الأرض ولم يرد..

كررت السؤال، فقال لها:

لا تنشغلي بهذا.. اهتمي فقط بفارس ابننا، إنه في حاجة إلى رعايتك، خاصة منذ ابتداء حالتي هذه.

فكررت السؤال في إصرار متجاهلة هذا الرد، وعندما استمر سكوته قالت:

قمت ليلاً قلقة، فجاءتني فكرة لم أفكر فيها من قبل، وأحضرت الهاتف وتركته بجانبك أثناء نومك، كنت من قبل أسمعك تهلوس بكلام لا أفهمه حينما تأتي لك النوبة والتي تنتهي بإغمائك، ولكن هذه الأيام أصبحت أسمع منك هذا الكلام خلال نومك أيضًا.. فسجلت لك هذه الكلمات على هاتفي المحمول..

ضغطت على زر التشغيل فسمع صوته واضحًا وهو يقول:

" أرجوك لا تؤذني.. سأفعل كل ما تأمرني به.. سأقتله.. نعم سأقتل هذا الطفل يا صاحب السر"!!

ثم أغلقته سناء، وقالت بتحد: إني لأشعر أن كل ما يحدث في غيبوبتك أو أحلامك حقيقة، وكأنك تنفذ فعلاً أشياء يمليها عليك شخص ما، من صاحب السر هذا؟

ووضعت يديها على رقبتها في رعب، ثم قالت: ومن هذا الطفل الذي تنوي قتله؟ أهو ابننا؟!

قال مستنكرًا: بالطبع لا.. كما أنني لا أتذكر ما تقولينه.

انفجرت قائلة: كل شيء أصبحت تنساه.. كل شيء، لقد أصبحت أخاف على نفسي وعلى ولدي منك.

وظهرت الدموع في عينيها، وقالت بحسرة: ماذا حدث لنا؟! لقد كنا أسرة سعيدة.

حسن باستسلام: خذي فارس واذهبا إلى بيت والدك حتى تتحسن الأحوال وتهدأ نفسك..

أخذت كلمته بغضب ودخلت حجرة النوم عازمة على ترك المنزل.. لقد فاض الكيل، وخرجت من المنزل دامعة العين، وهو جالس على نفس الكرسي يضع رأسه بين يديه منهارًا.

*****

ولكن وسط الطريق وخزها قلبها، وخافت أنها إذا تركته يمكن أن تعود وتجده قد انتحر أو حدث له سوء، أو - على الأقل - تعود له النوبة في وقت هو في أشد الحاجة فيه إلى المساعدة، فتوقفت قدماها وعصرها قلبها حيرة، وقالت لنفسها:

هل يكون حسن خطرًا على فارس؟ أم إنها مجرد أحلام تأثر بها عقله بسبب الغيبوبة التي تنتابه من حين لآخر؟ هل أضحي بولدي فأرجع، أم أضحي بزوجي فأذهب؟!

*****

وفي أثناء ذلك كان حسن جالسًا يفكر في حزن عما سيحدث بعد الآن، لقد تدمرت حياته الأسرية وأصبح غير واعي العقل أثناء عمله، وتحول إلى إنسان ضعيف.. هش من الداخل، وحياته أصبحت فترة زمنية بين صرختين توديان به في عالم غريب لا يعلم عنه شيئًا.

ورجع بظهره إلى الوراء فإذا به يشعر باقترابها.. الأنفاس البعيدة التي تأخذ وقتها طويلاً في الوصول إلى أذنيه حتى تعذبه قبل الدخول في الغيبوبة، لقد دخل حياته شيئًا جديدًا.. الإحساس بالذلّ، فالدقائق البطيئة التي تمر قبل الصرخة واقترابها تقهر أعصابه أكثر.. ذلّ الانتظار لشيء يتأكد تمامًا أنه يقهره، وفكر:

قد تكون هذه الصرخة هي البوابة أو الشفرة نفسها لذلك العالم الموازي.

حتى سمعها.. بشعة كالمعتاد في أذنيه ونفسه، وغاب عن هذا العالم ورأى نفسه يخطو في عالم مختلف..

نظر حوله هنا وهناك.. إنها صحراء واسعة والظلام هو أبرز ما يراه، فترك له ضوءًا ضعيفًا باهتًا رماديًا يجعله بالكاد يرى، وشعر بإحساس فظيع لا يحتمل.. شعور هائل بالخواء وعدم الأمان وكأنه أُلقي في قاع بعيد لا يوجد فيه أحد، ومشى كثيرًا دون فهم إلى أين يسير حتى تعِب، فجلس على الأرض ليستريح، حتى سمع صوتًا مألوفًا من ورائه يقول:

أتعبت من السير؟ فالرحلة مازالت في بدايتها.

التفت بسرعة ناحية الصوت ووقف، نظر إلى صاحب السر نظرة المتحمس للنزال..

فرد عليه بنظرة استهزاء، وقال: أتتخيل أنك ستتحداني وتقول بكل بساطة: لا؟ لو كانت لديك القدرة على ذلك لفعلت منذ البداية.

حسن: لقد عرفت أنك لا شيء، وأن السر الذي تقول إنك صاحبه إنما هي شفرة سرية تريدني أن أجمعها لأجلك.

ضحك الآخر ضحكة خشنة تنم عن القسوة والسخرية: أنت لم تعرف شيئًا..

واقترب منه بعينين يملؤهما النار، ونظر حسن إليه بعينين يريد إجبارهما على الصمود، وسكت متأملاً العين التي تبدو وكأن بداخلها حربًا ونيرانًا وغضبًا.

قال الآخر وهو مازال يقترب: أعرفت من أنا؟ أعرفت إلام تشفّر هذه الشفرة التي أريدك أن تجمعها؟ أعرفت ما هو هذا العالم ولماذا لا أظهر لك إلا فيه؟ ولماذا اخترتك أنت لتجمع لي الشفرة؟ وما معناها؟

سكت حسن مفكرًا، فقاطع الآخر تفكيره قائلاً: أعرفت الآن أنك لم تفهم شيئًا بعد؟ فلا يمكنك فهم أبعاد الصورة مادمت لا تفهم أبعاد نفسك، أتتصور أنك بعد قطعك كل هذه المسافة في رحلتك ستقول لي لا؟

فامتلأ حسن غضبًا، وقال: لقد خسرت الكثير واكتشفت أني كنت مخطئًا منذ البداية، وسأصلح كل ما فعلت.

رفع صاحب السر يده مشيرًا إليه في أمر قائلاً: اذهب وأحضر السر الرابع.

صرخ حسن برفض: لا.. لا..لا..

وأخذ يكررها متجاهلاً قلقه وخوفه، كررها حتى شعر أن الآخر قد تأثر من صرخاته وعلو صوته، فأراد أن يبعد حسن، ففرد ذراعيه تجاهه، حينها توقف صراخه وارتفع جسده في الهواء وابتعد بشدة وسرعة إلى الوراء.. وازدادت سرعته أكثر في الرجوع إلى الوراء، فصرخ ثانية: لا.. لا..

ولكن هذه المرة كانت هذه الكلمة تخرج من فمه اعتراضًا وقلقًا على مصيره.

واستمر جسده في الابتعاد، وكلما تزايدت صرخاته بالرفض والقلق ازدادت سرعته إلى الوراء، وشعر أن قلبه سيتوقف من السرعة التي يبتعد بها، ثم فجأة وجد نفسه يدخل حجرة حديدية باندفاعه هذا، وتغلق عليه تلقائيًا بعنف بعدما ارتطم ظهره بأحد جدرانها.

ثم هدأ جسده وتعالت أنفاسه محاولاً استعادة نفسه بعدما حدث.. وتأمل الغرفة.. أحس أنه قد دخل في علبة من الحديد ليس لها أي منافذ، وأخذ يفكر في كلام هذا الكائن الغريب.. إنه فعلاً لا يفهم شيئًا حتى الآن، ترى أي طريق فيه خلاصه.. الرفض أم الإذعان لأوامره؟

وفكر في حياته وما يحدث بها.. واستغرق التفكير طويلاً حتى طغى عليه الملل الشديد، إنه لا يشعر بالوقت في هذا العالم، وأخذ يدور في الحجرة في قلق، ثم جلس وضم ركبتيه إلى صدره.. وفكر:

لقد ظلمت سناء وفارس ولدي فلم أعد أهتم بهما.. لقد قصرت في مراعاتهما، فهما لا يستحقان مني كل ذلك.

وأرجع رأسه إلى الوراء رائيًا أمام عينيه صورة سناء وهي تبكي من الحزن، الذي دخل حياتهما بعد تكرار النوبات عليه، ورأى فارس وهو واقع على الأرض بعدما دفعه عندما رأى عينيه هو وسناء تشع ضوءًا غريبًا في الظلام، فقال لنفسه: كم ظلمتهما!

وتذكر عاصم وشغفه ولهفته لحل هذه الحالة، رغم غموضه وصمته غالبًا، وكلماته البسيطة التي لا يفهم منها شيئًا، وجلساته التي يرتاح فيها لاستماعه له، ولكنه لا يعرف ما نهاية كل ذلك..

وتوقف عقله ليتذكر شيئًا ما.. فكثيرًا ما تتصل سناء بعاصم مدعية أنها تطمئن على زوجها وهل تتقدم حالته أم لا، ولكن الاطمئنان على حسن ليس مبررًا لغزارة هذه المكالمات.. وبدأت تدخل قلبه فكرة غريبة وسيئة للغاية.. مريرة تستثير غضبه.

فسأل نفسه: هل كنت غافلاً؟ هل أصبحت في موضع الرجل الذي تخونه زوجته مع الطبيب المعالج له؟! ولماذا يتكلم معها ويفسر حالتي

لها باستمرار، ثم يكون رد فعله معي هو مجرد كلمات لا أفهمها ولا تفسر شيئًا؟

وسمع في أذنيه كلمات عاصم: وتأكدت من زوجتك أن ما يحدث لك يتم دون تحركك من مكانك أو تغيير شيء في نفسك.

وترددت كثيرًا كلماته في عقله: وتأكدت من زوجتك.. وتأكدت من زوجتك..

ثم قال بصوت مسموع بغضب: لا لم أظلمك يا سناء.. إنك خائنة.. سأقتلك وأقتل الطبيب.

ثم بكى وقال: وأقتل نفسي في النهاية لأرتاح من هذا العذاب..

وفتح عينيه بعد أن أغلقهما من شدة البكاء، وقال:

كيف لم أر ذلك؟ كيف لم أفهم ما يحدث حولي؟ كيف تركت نفسي غارقًا في التفكير في سالم وصاحب السر وعالمين سخيفين أنتقل بينهما، وفي نفس الوقت كانت الخديعة تحدث من وراء ظهري، صحيح أنه لا توجد بين يديّ أدلة.. ولكنه أصبح شيئًا واضحًا أمام عينيّ، وما كان ينقصني إلا أن أجلس وحدي وأحلل المواقف بصور سليمة.. نعم إنها تخونني..

سأقتلها وأقتله..

(١٢)

وتذكر ابنه في حسرة.. ليس لهذا الطفل أي ذنب في كل ما يحدث، حتى أنه تفاجأ عندما دفعه في الظلام، ولا يفهم ما الذي يحدث في والده، وركز قليلاً في شيء تذكره.. وقال لنفسه:

ابتسامة فارس لي ونظرته تغيرت.. فيها شيء من السخرية، هل قالت له سناء أن والدك مجنون ولابد أن تتجنبه؟ هل كرهت ولدي فيّ؟ ما الذي حدث في حياتي؟

وأخذ يتذكر الكثير والكثير مما مر به في هذه الفترة.. لولا جلوسه وحده لما كان راجع كل شيء في ذهنه بهذا التصوير البطيء.

تذكر معاملة زملائه في العمل، إنهم يعتبرونه مجرد إنسان مريض متوقف لا يستطيع فعل شيء، يسخرون منه بسبب الأعراض الغريبة التي ظهرت عليه.. شيء من التيه وعدم التركيز.. الخوف من أشياء عادية لدرجة أنه أصبح في نظرهم غير متزن نفسيًا.

واستمرت الذكرى به طويلاً، وتاه في ذكرياته كأنها تحدث الآن أمام عينيه، وصرخ: لماذا يسخرون مني؟! لماذا أصبحت مجنونًا في نظرهم؟ كم هم حمقى! فالبلاء قد يصيب أي إنسان، وما أدراهم بما أمر به؟ فلو أن أحدهم لاقى ما ألاقيه فلسوف يعرف حقًا كم هم مخطئون في حقي.

وظهر سالم فجأة أمامه من لا شيء.. وقال: لا ليس كل إنسان يصيبه ما أصابك، فأنت من اخترت ذلك منذ البداية.

فزع حسن من المفاجأة، وصاح: اغرب عني.. أنت السبب في كل ما أصابني، فلولا أني رأيت وجهك هذا ما كانت حدثت لي هذه المحنة.

وابتعد حسن بجسده عنه إلى ركن الحجرة جالسًا، وضم ركبتيه إلى صدره مرة أخرى، ووضع رأسه بين ركبتيه في يأس.

اقترب منه سالم، وقال: لست أنا سبب مشكلتك، بل أنت..

لم يرد حسن وظل صامتًا..

فاستطرد سالم حديثه غير مبالٍ: لقد حذرتك في قبو القصر قبل أن تحرر السر الأول.. العرش، فأول نقش لم تفهمه ووجدته في البطاقة.. كان العرش.

رفع حسن رأسه وقد بدت عليه البلاهة، واستمر سالم يلقي بالمفاجأة عليه:

إن الأصوات تتشكل على هيئات مختلفة حسب نوعها ومصدرها.. فصوت الأنين له شكل.. وصرخات الفرح والسعادة لها شكل.. وصوت الفزع له شكل، والصوت العميق يختلف عن الصوت الحاد، ولقد أرسلتك لترى هذه الأشكال وقد تحددت على الرمال محاولة مني للمساعدة.. ولكنك لا تفهم أبدًا، أنت في العالم الآخر.. يتشكل بين

يدك الهواء وتطير فيه.. كما يمكنك رؤية الصوت، وهذه الأشكال أتت من صوت صاحب السر ومن يسكنون العالم الآخر.

وسكت قليلاً متأملاً حسن، ثم قال:

ورأيتك في المدرسة المهجورة تبحث عن السر الثاني والكتاب، كان هذا النقش هو شفرة للجهل..

صاح به حسن: لماذا أردت أن توقعني؟ لماذا أردت أن تقضي عليّ؟!

تجاهله حسن تمامًا كأنه لم يسمعه، وتحرك من موضعه، وتكلم بصورة مسرحية:

وتركتني ساقطًا في آلامي في ممر التماثيل في الكهف، وصممت على إخراج السر الثالث المخبوء داخل الذهب.

فأعقب حسن مبرزًا كلامه بعناد وإصرار: وأوقعتني من أعلى الجبل، ورميتني في ظلمات ليس لها نهاية لتتخلص مني، أليس كذلك؟!

سالم: لا.. كنت أحاول إنقاذك.. إن موتك في هذا العالم يعني حياتك في عالمك الأصلي دون رجوع مرة أخرى.

قام حسن وأمسك برأسه في ألم، وقال: كفى.. كفى أرجوك، هل هذه هي أعراض الجنون حقًا؟ لقد دخلت في متاهة كبيرة لا أفهمها ولا أستطيع الخروج منها.

سالم: لقد أراد من تسميه صاحب السر أن تجمع له شفرات الأسرار كلها التي تنزعك من إنسانيتك؛ كي يهزمك ويعيش داخلك.. يأمرك فتطيع.. يقول فتسمع.. إنها حرب عليك يا أخي.

إنه عالم موازٍ لعالمك، وفيه أشياء مشابهة لما تراه يوميًا.. ولكنه ليس هو، فأبعاد الكون كثيرة وغريبة ولا نفهمها.. وكلما كانت الحقيقة أكثر وضوحًا ونقاءً كلما كانت أصعب على التصديق، ولأن الصورة كبيرة للغاية فعينك الصغيرة لا تستطيع تجميع تفاصيلها، فنحن الآن في مكان ما ووقت ما وعالم آخر، والحل الوحيد أن أقتلك فيه حتى لا يصبح لك وجود هنا، ويصبح وجودك الوحيد في عالمك الذي عشت فيه دومًا.

حسن، ومازال ممسكًا رأسه: أرى أن الهذيان قد تزايد على عقلي وكاد يفتك به.

صاح سالم بحدة: أفق وكفى.. إن كل ما تراه حقيقة وليس هذيانًا، ولابد أن تنقذ نفسك مما أنت فيه.

أسقط حسن ذراعيه في استسلام..

سالم: وعما قريب سيفرغك من روحك وذلك بإغراقك في الخوف منه، فالخوف يُصعّب كل شيء، ويجعلك تفك شفرات الكلمة السرية التي تجعله يعيش في عالمك كأنه أنت.. وأنت الآن في هذه الحجرة بصدد الكشف عن السر الرابع.

تغير وجه حسن، وقال: ومن هو؟ إنس أم جان؟ أم مخلوق لا نعرف كنهه حتى الآن؟

ثم نظر إلى سالم، ووجه إصبعه إليه قائلاً: ومن أنت أيضًا؟ وكيف انتقلت إلى هذا العالم؟

سالم: إنه مخلوق لا أعرف طبيعته، ولكن يمكنك تخيل أبعاد كثيرة للكون لا ندركها فتتصور من يعيش فيها.. فمثلاً أجسام الجان والملائكة لا نعلم طبيعتها ولا نشعر بها رغم أنها قد تكون حولنا.. أرجو أن توسع عقلك لتدرك ما أقوله، ولكن أيًا كان هذا المخلوق فهو شرير يريد بك الضرر.

أما بالنسبة لي.. فإنني حبيس هذا العالم، لقد تملكني قبلك ولا أريد لهذه المأساة أن تتكرر أمامي، إنني وسط أهلي الآن في غيبوبة كاملة.. لا أعرف كم مضى عليّ من الوقت؟ ربما شهور أو سنوات.. فمرور الزمن وحدوده وطريقة تقديره هنا يختلف بالطبع عن عالمك الأصلي.

قال حسن باشمئزاز ونفاد صبر: وما غايته في كل هذا؟

سالم بثقة: إنه الإحساس بالانتصار والتملك يا صديقي.

قال حسن بحيرة شديدة: وإذا قتلتني ماذا سيحدث؟

سالم: لا تقلق.. إنك لن تموت بالمعنى الحقيقي للموت.. فإن روحك ستنتقل إلى مكان آخر مثل النوم.. أو الموت، وهل للموت تفسير أبسط

من أنه انتقال للروح إلى مكان مختلف وعالم لا نعرف عنه شيئًا؟ فشيء من الحياة يوجد داخلك وشيء من الموت فوق كتفك، والجسد يفنى والروح تبقى، فما الوجود إلا مسارات يسير فيها الإنسان ولكننا نراها بزوايا مختلفة.

حسن بتعجب: ما هذه الألغاز؟! هل هذا درس فيزياء أم ماذا؟!

ثم التفت إليه وقال: وأنت ماذا ستفعل بنفسك؟

سالم: لا أعلم.. إنك لازلت تجمع الأسرار فعسى يكون هناك احتمال لنجاتك، ولكن.. هل ستنجح مع حالتي نفس القصة بعد أن أكملت السر لهذا المخلوق من قبل واستحوذ عليّ؟!

obeikan.com

(١٣)

وغاب صوتهما في صمت وحيرة..

ثم عاد سالم إلى الكلام: لم أستطع إفهامك كل ذلك منذ البداية لأنك لم تعطني الفرصة، لقد كنت واثقًا تمامًا في هذا المخلوق وتقلق إذا حادثتك أو حذرتك أو اعترضت طريقك، كما أنني كنت أسير وهم أنه أقوى مني وسيعاقبني إذا حذرتك، ولكني أنا الذي جعلته قويًا بخوفي، وفهمت الكثير من الأشياء الغريبة في هذا العالم.. هل تعلم كيف دخلت إليك على الرغم من أنها حجرة حديدية بابها محكم الغلق؟

لقد اكتشفت أن الإنسان في هذا العالم له قدرات أكبر ومختلفة عن المألوف، لقد ذاب جسدي في حديد الجدران ثم انفصلت عنه بظهوري داخل الحجرة!! إن جسدك هنا يمكن طيه بسهولة!

تمتم حسن بصوت خافت: شيء عجيب للغاية..

سالم: إن قدرات الإنسان محكومة بقوانين عالمه، وقد تكون هناك مخلوقات أكثر عقلاً وحكمة منك وأكثر إبداعًا وقدرة على الاختراع، فكل شيء يخضع للمقارنات، وطاقاتك تخضع لقوانين عالمك وطبيعته.

سأله حسن بحماس: أيعني ذلك أنني أستطيع الخروج بكل سهولة عبر الحديد؟!

سالم: بالطبع.. مثلي تمامًا..

ولكن امتلأ صوت حسن بالحزن الشديد وهو يقول: وما نفع ذلك؟ سأهرب من عالم غريب إلى عالم فيه زوجة خائنة وطبيب خسيس وابن سقطت من نظره ويعتبرني مجنونًا، وأناس يتلاعبون بعقلي ويستهزأون بي وبضعفي.

سالم: أتعرف ما هو السر الرابع؟

حسن: لا.. وما يدريني؟

سالم بغموض: إلى ماذا ترمز الصحراء الواسعة؟ إلام يشير وجودك وحدك لفترة طويلة في غرفة حديدية مغلقة قبل أن أحضر إليك؟

قال حسن بعدم تأكد وتردد: لا أعلم.. ربما الضياع.. السجن في الحجرة.. الوحدة.. الملل.

رد سالم ببساطة: لا يهم.. لا يهم أن تعرف إجابات كل الأسئلة..

إن زوجتك ليست خائنة، وكل ما فكرت فيه أوهام نتجت من جلوسك لفترة طويلة وحدك، فأحسست بالضعف.. والحيرة.. وانعدام ثقتك بنفسك.. إن عاصم لم يرها أبدًا، وحتى عندما أصرت أن تأتي معك إلى الطبيب لأول مرة فقط لتطمئن عليك؛ رفضت أنت أن تدخل معك، واتصالاتها الكثيرة كان معظمها موجهًا إلى السكرتيرة التي تنظم مواعيد المرضى؛ لتتأكد أنك وصلت بسلام ولتعرف منها متى خرجت

من عند الطبيب؛ لأنها تعلم جيدًا أن الغيبوبة قد تأتيك في أي مكان، فخافت أن يحدث لك سوء في الشارع بعد إصرارك الشديد على ألا تأتي معك في كل مرة، وألا ترد على مكالماتها المتكررة على هاتفك المحمول.. إنها حريصة عليك.. إنها تحبك.

قال حسن بشوق مصحوب بنبرة ذنب مريرة: أنا أيضًا أحبها.. ولكنها تعيسة معي.

فقال سالم برقة: لا تخسرها إذن..

حسن: هيا بنا.. فلنخرج من هنا بسرعة.

أدار سالم ظهره إليه وقال: إذن فلتحاول عبور الجدار الحديدي، ثق أنك ستعبر.. لا تتوتر ولا تقلص عضلاتك، ومن الأفضل أن تحاول التفكير في شيء آخر.

فكر حسن في سناء وفارس.. أسرته الصغيرة.. إنه يدين لهما باعتذار ومحبة، فيكفي تحملهما وصبرهما حتى الآن، ودخل بجسده في الحديد..

أغلق عينيه وسرح بذهنه في ذلك الشعور الغريب، وتساءل: هل ذبت فيما حولي؟ هل أصبحت جزءًا منه؟ إن جسدي تمر به الآن أجزاء الحديد بنعومة.. أشعر بها وكأنها قد عبرت إلى داخلي!! غريب هذا العالم.. لقد عشت مشاعر ورأيت فيه أشياء.. لا يصدقها العقل.

ولكن اعترضت ذهنه فكرة مخيفة:

ماذا لو لم أستطع المرور الكامل من الحديد؟! هل سأصبح جزءًا منه إلى الأبد وأبقى حبيس هذا الجدار؟!

ورأى بعدما أغلق عينيه مستسلمًا لهذا الشعور؛ نجومًا يعبر خلالها في سماء سوداء.. لا يعلم ما هذا، شيء ما يحاول شده إلى الوراء.. فقاوم ذلك الإحساس وأصرّ على المضي، شيء غامض فعلاً.. كيف أصبح الحديد بهذه المرونة؟ ولماذا استمر مروره كل هذا الوقت؟

فتح عينيه فوجد نفسه مازال في الحجرة جالسًا على الأرض، وفي يده بطاقة تشبه سابقيها!! نظر حوله بجنون غير مصدق.. أين سالم؟! لقد كان وراءه بالضبط.. ماذا حدث؟

وقام من مجلسه وهو يجوب الحجرة في هياج، حتى هوجم من الخلف كالعادة بالشريط الأسود على عينيه..

فصرخ بشدة: لا.. لا.. سوف لا أستسلم أبدًا هذه المرة.

وحاول إزاحة الشريط بسرعة من على عينيه، ورفعه قليلاً إلى جبهته، ومازال الشخص المجهول من ورائه هو المتحكم بقوته، فأغرس حسن أظافره بقوة في خديّ ذلك المهاجم، حتى شعر أنه على وشك انتزاع جلد وجهه من رأسه!

واستمر هجوم الآخر محاولاً إعادة الشريط الأسود إلى عينيه.. ولكن استمر حسن في إطاحة يده في الهواء بعشوائية، حتى أمسك بشعر ذلك الشخص وشده بقوة، وحرك جسده كله تجاه وجهه ليراه.. إنه الآن أمام حسن.. فرآه..

حملق حسن عينيه فيه عن آخرهما في ذهول، فاغرًا فاه وقد تصلب لسانه من المفاجأة..

واستمرت هذه اللحظات التي أطاحت بعقل حسن من هولها وشدتها.. جف ريقه للغاية.. وظل في هذا الوضع كأنه تحول إلى تمثال، وتوقف الزمان عند هذا الحد..

ولكنه أخيرًا اخترق الزمان بصوته، صارخًا بآهة قوية عالية تكاد تصم الآذان من قوتها، ثم ترك نفسه في استسلام لهذا الرجل يضع الشريط على عينيه في آلية شديدة.. إن الضغط العصبي الذي تعرض له حتى الآن لا يحتمل أبدًا.

فالشخص الذي يهاجمه في كل مرة من الخلف ليضع الشريط الأسود السميك على عينيه بقسوة.. هو عاصم.. الطبيب..!!

obeikan.com

(١٤)

فتح حسن عينيه وجد نفسه راقدًا في حجرة في مستشفى..

فتساءل: ماذا حدث؟

وأخذ دقائق ليتذكر أن آخر مرة كان فيها في عالمه كان وحيدًا في المنزل جالسًا في انهيار، بعدما تشاجرت معه سناء وتركت المنزل.

وفُتح الباب فإذا بالقادم هو سناء.. تغيرت ملامحها بسرعة عندما نظرت إليه، وصاحت في فرحة:

حسن.. حسن، أخيرًا أفقت من الغيبوبة.

وهرولت نحو الفراش ووقفت تنظر إليه في سعادة، نظر إليها حسن بنظرة فيها وخز بالذنب، وقد بدأت الدموع في الظهور في عينيه..

ثم قال: سامحيني.. لقد ظلمتك.

جلست بجانبه وهي لم تعرف ما كان يقصد في نيته، وقالت:

بل سامحني أنت.. لقد تركتك وسيطر عليّ الغضب، ولكني رجعت إلى المنزل بعدما شعرت بالذنب تجاهك أثناء سيري في الطريق إلى منزل والديّ، خفت أن يصيبك سوء وألا تجد أحدًا بجانبك، فأوصلت فارس إلى بيت جده ورجعت إليك.. وكما توقعت وجدتك غائبًا عن

الوعي وأنت لا تزال جالسًا على نفس الكرسي، كأن قلبي شعر بأنك في خطر.

حسن: إذن.. لماذا أنا في المستشفى هذه المرة؟!

سناء: إنك لم تشعر بكل هذا الوقت أثناء غيبوبتك، لقد مضى عليك في هذا الوضع ما يقرب من أسبوعين، عندما دخلت المنزل ووجدتك في هذه الحالة حاولت أن أفيقك بكل الطرق، وطلبت مساعدة الجيران، ولكنك استمررت في غيبوبتك، فأحضرتك إلى هنا..

وتنفست نفسًا طويلاً، وقالت: حمدًا لله.. لقد تصورت أنك ستضيع مني، لقد قال الأطباء أن جسدك ليس به مرض أو أي شيء يدعو إلى القلق.. إنما أنت نائم.. فقط غائب عن الوعي وكأنك ذهبت إلى عالم آخر.

وبمجرد أن سمع هذه الكلمات الأخيرة حتى تغير وجهه، وكادت هي أن تنطق لتسأله عما يشعر به الآن، ولكن قطع كلامها طرقات على الباب قبل أن يُفتح..

فنظرا إليه.. ودخل عاصم إلى الحجرة، ولم يعطه حسن فرصة أن يكمل ابتسامته بأن رآه قد أفاق من غيبوبته، فقد انهال عليه بالصياح والغضب، وحاول القيام ليهاجمه بل ويضربه، وصرخ:

أنت من أعوان صاحب السر.. يالك من شرير مخادع!! كل هذه الفترة وتخدعني وتجعلني تحت يديك.. ،أنت من يضع الشريط الأسود على عينيّ ويهاجمني من الخلف.

صاحت سناء: ما هذا الكلام؟! اهدأ يا حسن، إنما هو عاصم.. طبيبك الذي اعتدت على الذهاب إليه.

زمجر بغضب: نعم أعرفه.. إنه ليس طبيبًا، إنه رجل سيء شرير، هو السبب في العذاب والمحنة التي نمر بها جميعًا.

كل ذلك وسناء تمنع زوجها من مهاجمة عاصم، بينما عاصم واقف في مكانه هادئًا، ويبدو على وجهه عدم الفهم تمامًا..

واستمر حسن في صراخه: يالك من ممثل بارع! من يراك يتخيل أنك رجل يمكن الثقة فيه.

ثم وجه كلامه لسناء: اتركيني.. سأكسر عظامه!

صاحت سناء: اصمت، إنك في مستشفاه الخاص، لو كسرت عظامه كما تقول سيطردوننا.. من سيقوم بعلاجك؟ إنه المتابع لحالتك.. هل تريد أن تبدأ من جديد مع طبيب آخر؟!

هدأ حسن من الدهشة، وقال: نحن في مستشفاه؟! وكيف سندفع كل هذه الأموال؟! لا، إنه يريدني هنا ليسطو على عقلي..

وخلال هذه المناقشة الصغيرة كان عاصم يضغط على زر صغير في الحائط، فأتت الممرضات سريعًا، ورأينه في هذه الحال فحاولن الإمساك به والتغلب على هياجه، وساعدتهن سناء دون أن تفهم شيئًا مما يقوله، ظنًا منها أن ذلك لصالحه.

ولكنه ظل يصرخ: من المؤكد أنه سيعطيني هنا أدوية يسيطر بها على عقلي ويجعلني حبيس العالم الآخر.

وسقط شيء على الأرض..

اقترب عاصم منه ناظرًا إلى ما كان تحت يده وهو راقد على الفراش وسقط توًا على الأرض، ويبدو أن حسن لم يكن يدري به من شدة غضبه، ورفع ذلك الشيء إلى بصره..

إنها إحدى البطاقات التي عليها أسرار العالم الآخر!

وأظهرها لحسن.. فهدأ قليلاً من المفاجأة، ودقق النظر فيها، ثم صرخ ثانية:

إنها بطاقة السر الرابع! إنهم يسيرونني نحو النهاية!

ووضع عاصم البطاقة في جيبه، وحسن يعلم جيدًا أن الرموز السابقة معه أيضًا!!

وأمر عاصم بإعطائه مهدئًا وخرج من الحجرة، وانتظرت سناء حتى هدأ حسن تمامًا ونعس، ثم ذهبت إلى مكتب عاصم، وقالت والدموع تنهمر من عينيها:

هل أصبح زوجي مختلاً عقليًا أيها الطبيب؟

فطلب منها الجلوس والهدوء وطمأنها، ثم طلب أن يتسع صدرها ليحكي لها القصة منذ بدايتها إلى آخرها..

*****

سمعت سناء كل شيء من الطبيب، وبدا على وجهها الذهول مما تسمع، ثم قالت في النهاية بعدما أنهى كلامه:

لا أستطيع تخيل أو استيعاب كل ذلك.. كيف هذا؟! عالم غير عالمنا.. أبعاد الكون.. صرخات مجنونة.. نقوش غريبة غير مفهومة.. كل ذلك درب من الجنون.

رد بهدوء: للأسف.. هذا ما قاله.

رفعت صوتها بدهشة: ولماذا نسلّم بكلامه دون تفكير؟! ألم ترَ حالته؟ وعينيه الحمراوين وجسده المرتعش المتهاوي باستمرار؟ هل كل ذلك لأن هنالك مخلوق يقابله في العالم الآخر - هذا إذا كان هذا الكلام صحيحًا - ويأمره بأوامر ينفذها وهو خاضع خائف؟! لا.. لا أيها الطبيب، إنه يهذي.

قال بثقة وتسليم بالأمر: لا.. بل صدقيه.

ملأ صوتها الغضب والذهول أكثر وهي تقول: أتريدان أن تسلباني عقلي؟! كيف أصدق هذا الكلام؟! إنسان يسافر بروحه إلى مكان آخر، وطبيب يؤمن بالسفر عبر الأكوان وشفرات سرية.. ما كل هذا وما الدليل عليه؟

ثبت نظره تجاهها، وقال بصوت له نبرة غامضة غريبة:

لأنني رأيت ذلك بعينيّ.. لقد سافرت أيضًا إلى ذلك العالم الآخر!!

obeikan.com

(١٥)

توقفت كلماتها في لسانها وحملقت عينيها، وحُبس نفسها للحظة، وأيقنت أنه أيضًا مجنون، واستمر سماعها لما يقول غير قادرة على النطق بأي شيء، وسمعت منه كيف بحث الأمر وسمع من حسن منذ البداية، وكيف رتب الشفرة.. وكيف سافر إلى العالم الآخر من خلالها.. وماذا رأى هناك، وماذا شعر به.. وذكر لها أيضًا ماذا فعل..

واستمرت في اعتقادها - رغم ذلك - أن كل هذا هذيان، وأن هذا الطبيب مجنون، وأنه لابد أن يخرج حسن من هذا المشفى؛ حتى لا يزيد عاصم هذه الفكرة تيقنًا وقوة في عقله بتدعيمه وتصديقه لها، وخرجت من عنده ذاهبة إلى حجرة حسن لتطمئن عليه، وصممت في قرارة نفسها على خروجه من هنا بأي ثمن.

فتحت باب الحجرة.. كان حسن نائمًا، فوقفت في نهاية الفراش ناظرة إليه في حيرة، وتنفست نفسًا متعبًا وكأنها تقول لنفسها:

إلى متى سيستمر كل هذا؟ ومتى سنخرج من هذه المتاهة؟

ولمحت قدميه فوجدتهما عاريتين، فأمسكت بطرف الملاءة لتغطيهما، ولكنها لاحظت شيئًا.. شيئًا عجيبًا.. ما هذا؟ يوجد شيء أسود في السطح السفلي لكل إصبع من قدميه، فانحنت ودققت النظر فيه.. إن تحت كل إصبع منهم نقشًا صغيرًا للغاية، يشبه النقش الذي كان على البطاقة التي كان يمسكها عاصم منذ ساعة عندما هاج حسن عليه!

ولكن الإصبع الأكبر ليس به شيء!

فتحت فمها في دهشة، وزاغت عينها غير مصدقة.. وتساءلت:

ما معنى هذا؟!

*****

استيقظ حسن في اليوم التالي فوجد سناء سارحة الذهن جالسة على الكرسي بعيدًا عنه في الغرفة، تتلاقى أصابع يديها معًا أمام فمها، وتنظر نظرة فارغة كأنها تفكر بعمق في شيء ليس عاديًا.

نهض حسن جالسًا وناداها فلم ترد، وكرر النداء أكثر من مرة حتى أدارت وجهها إليه وانتبهت، ثم قالت:

شيء غريب يحدث لك.. لا أفهمه.

- لا تشغلي بالك بكل ذلك، يجب أن نخرج من هنا فحسب.

- اتصلت بوالدي وسيأتي فورًا.

بدأ يظهر الغضب في صوت حسن وهو يقول: الآن فهمت، وكنت قد سألت نفسي من سيدفع حساب المستشفى.

ردت بهدوء: ولم لا نلجأ إليه ليساعدنا؟ أكنت تتصور أنك ستعالج في مستشفى خاص من دخلنا العادي؟!

ازداد غضبه، وقال: لا أريد العلاج ولا أريد الالتجاء لوالدك أبدًا، أنت تعلمين هذا.. السيد العظيم سيد كمال الغني ذو اليد المبسوطة الذي يعطي كل محتاج.. يدفع لي فاتورة علاجي في مستشفى خاص، وهو أيضًا الذي أذلني حتى رضي بي زوجًا لابنته، أليس كذلك؟

- ألا تنسَ أبدًا ما فات؟! لقد أصبحنا زوجين وكفى، لايهم ذلك الآن، فالمهم أن نخرج من هنا ولا نعود لطريق الأطباء مرة أخرى.

- وكيف سنرد هذا المبلغ لوالدك؟

- لا أعلم..

أخرج حسن نفسًا عميقًا فيه شيء من الحيرة.. فالحديث انتهى عند هذا الحد، وتذكر ما حدث من ذلك الرجل، إنه يأخذ ولا يعطي، حتى الفقراء يعطف عليهم حتى يعرف الناس كلهم أنه كريم يعطي بغير حساب، هو وجه زائف أعطاه الله المال وابنة جميلة طيبة تمكنت من قلب وعقل حسن، فأذله ورفضه بفجاجة، حتى وافق على الزواج تحت إلحاح ابنته المتكرر، لا يصدق أنه الآن في حاجة إليه ثانية..

ولكنه يعلم جيدًا أنه إنسان ضعيف.. ضعيف للغاية، يريد أن ينسب لنفسه العز والكرم والكبرياء لأنه فارغ من الداخل، ولكنه لا يريد قول هذا الكلام أمام زوجته حتى لا يجرح مشاعرها، فهو والدها قبل كل شيء..

*****

رجعا إلى المنزل بعد طول مشاحنات بين حسن وعاصم، وترك حسن وزوجته أبيها ناظرًا إليه نظرة مريرة ساخطة على ضيقته التي أجبرته على اللجوء إليه.

وجلس حسن وحده في الغرفة، بينما تركته سناء وخرجت ليرتاح، وقرر أن حياته لابد أن تتغير وأن يعود إلى عمله وينتظم فيه، ولابد أن يثور على كل شيء جعله ضعيفًا متخاذلاً، فيجب عليه أن يتحرك وكفى سكونًا..

وبالفعل انتظم في عمله وتعامل مع زملائه وكأن شيئًا لم يحدث له، وتجدد الدم والحماس لديه، وذلك هو المطلوب، ولا يريد غير ذلك.

ولكن في الحقيقة ما كان هذا إلا قشرة، إن الإحساس بالخوف من الصرخات التي تؤدي به إلى العالم الآخر مازال قائمًا، وعدم وجودها يجعله يضطرب من داخله أكثر ويتوقع حدوثها في أي وقت، فلا العذاب انتهى، ولا اللغز تمّ حله، ولا عادت حياته طبيعية كما كانت إلا من الخارج فقط.

والشفرة التي حوّلت حياته إلى جحيم، والرعب الذي رآه.. كل ذلك يهز قلبه بشدة لمجرد تذكره، ويسطو الخوف عليه أكثر حينما يصارح نفسه بأن ذلك ليس النهاية؛ لأن الرموز مع عاصم، كما أن الشفرة لم تكتمل!

لابد أن عاصم سيستخدم ما معه من الرموز ضده، لابد أنه سيعود قريبًا.. إلى ذلك العالم الآخر، ولا يستطيع الذهاب إلى عاصم مرة أخرى خوفًا من عودة الأيام السابقة، خوفًا من أن يصدقه ويعود مجددًا إلى المتاهة، واستمر هذا العذاب الفكري لفترة.

وخرج يومًا من عمله.. كان أذان العصر يُرفع، فدخل المسجد.. شعر برجفة في شفتيه ودقات قلبه تتسارع.. ورجليه لم تعودا قويتين.. وأقيمت الصلاة فتوضأ وصلى مع المصلين، ثم ظل جالسًا بعد الصلاة، وتاه عقله قليلاً مسترجعًا كل ما فات، فلم يستطع التحمل أكثر من ذلك؛ فانفجر في البكاء واضعًا رأسه بين كفيه في مشهد شديد مؤثر..

وما هي إلا عدة لحظات حتى شعر بيد توضع على كتفه، فنظر إلى الجالس بجانبه فوجده شيخ المسجد ناظرًا إليه بشفقة، وقال:

لماذا يا بني؟ لماذا لا تأتون إلى هنا إلا بعد تفاقم المشكلة وتغرزون أنفسكم في الأوحال؟! لماذا لا تلجأون إلى الله إلا بعد حدوث المأساة؟

ظل حسن صامتًا ناظرًا إليه ومازالت دموعه تنهمر..

فربت الشيخ على ظهره برفق، ثم قام.. ففكر حسن:

من المحتمل أنه توجد بالفعل عوالم وكائنات أخرى وشفرات وبوابات سرية لهم، لابد وأن الكون والحياة لهما زوايا مختلفة مجهولة.. مرايا

ومسارات تتوازى داخلي ومع العالم حولي، سأكسر انعكاسات المرايا، وسأجعل المسارات كلها تؤدي إلى طريق واحد...

ثم نظر إلى الأرض في خضوع وقال: يارب..

*****

ورجع إلى المنزل، ونظر في الغرف.. فلم يجد سناء، اتصل بها فردت عليه وصوتها مختنق بالدموع:

إنني هنا عند والدي.. اتصل بي ليخبرني أن فارس ابننا أمسك رأسه بشدة ثم غاب عن الوعي في غيبوبة تامة.. مثلما يحدث معك!!

obeikan.com

(١٦)

أنهى المكالمة بسرعة وخرج ليرى ما حدث لولده، لم يكن يسير.. بل كان يهرول ويجري، وتعاقبت على عقله الأفكار.. هل سيدور ولدي في نفس الدوامة؟ هل خطفه صاحب السر؟ وكيف سأنقذه؟ وتمنى بشدة أن يكون ما حدث له ما هو إلا شيء بسيط ويزول بسرعة.

وما كاد يصل إلى البيت حتى شعر بها تقترب.. الأنفاس المتلاحقة البعيدة! فتوقفت قدماه وضاعت ركبتاه، ولكنه صمم أن يتجاهل ذلك، يجب أن يصل بسرعة ليرى فارس.. ولكنه لم يستطع، فقد كان ظهور الصرخات في أذنيه أسرع مما توقع، وأمسك رأسه من شدة الصرخات العالية الحادة، واجتمع حوله بعض المارة، وتهاوى جسده في غيبوبة أوصلته إلى العالم الآخر..

*****

وجد نفسه في المدرسة المهجورة، بوحشتها وظلمتها.. نظر حوله وصرخ في جنون:

ماذا تريد مني؟ ألم أجلب لك أسرارك؟ فلتدعني وشأني ولا تؤذِ ولدي.

تلاحقت أنفاسه من فرط الانفعال ثم سكت في يأس.. ماذا سيحدث بعد الآن؟

وسمع صوتًا قادمًا من بعيد.. ليست أصوات صرخات.. ولا خطوات.. إنه صوت مخيف، كتم نفسه ليسمع الصوت بوضوح أكثر.. لم يكن يريد التصديق.. ما يسمعه هو صوت فحيح!! ولكنه ليس فحيحًا ضعيفًا، بل صوتًا متوحشًا ينذر بالهلاك.

وحاول استبيان ما يأتي من على بعد منه في الظلام، وتمنى ألا يكون ما يخافه صحيحًا، ولكنه رأى ما خيب فيه كل ظنون الأمل، إنه نفس الثعبان الضخم الذي رآه خارجًا من التمثال الذهبي في ممر التماثيل في الغار!

رآه قادمًا إليه، بعينيه المخيفتين وجسده الضخم القادر على إذابة قلبك رعبًا من قبل حتى أن يهاجمك، أفاق من الذهول والخوف وترك ساقيه تجريان دون وعي في الطرقات، والثعبان وراءه يتعقبه، وصوت فحيحه يسيطر على المكان ويشق صداه ويزيده رهبة، وجرى على السلم، ولم تتكسر درجاته هذه المرة، وظل يهبط الأدوار كلها جريًا والثعبان يلاحقه، حتى وصل إلى الدور الأرضي، كان مسرعًا بشدة لدرجة كاد معها أن يسقط من الجري، ودخل الحجرة التي كان فيها الكتاب القديم، ووجده على نفس المكتب، وأخذ منه السر..

وفجأة تغير المكان وكأن الجدران تتساقط وتستبدل بديكور آخر، فوجد نفسه في الصحراء التي رفض فيها تنفيذ أوامر صاحب السر، ومازال الثعبان يطارده بإصرار ولا يعطيه فرصة للوقوف أو حتى تدارك أنفاسه، ووصل إلى الحجرة الحديدية وأخذ منها السر، فتبدلت

الصحراء وتلاشت الحجرة ووجد نفسه في الممر المظلم في الغار، يجري بين التماثيل الغريبة الشكل، وكلما نظر وراءه من مشهد لآخر وجد الثعبان لا يكل في ملاحقته ومصر على تعقبه، وصوت فحيحه يعلو على صوت أنفاس حسن اللاهثة المرتفعة.

واستمر جريه السريع بين التماثيل حتى ظن أن الممر لا ينتهي أبدًا، ثم لمع في عينيه التمثال الذهبي، ففتحه بعنف وسرعة وأخذ منه البطاقة الخاصة به، وبعدها تغيرت ملامح المكان للمرة الثالثة وتلاشى كل شيء حوله، ووجد نفسه في القصر الذي كان فيه في أول رحلة له إلى هذا العالم.

وما إن أخذ أنفاسه للحظة تصور فيها أن الثعبان قد اختفى؛ حتى وجده وراءه، فشهق شهقة عالية من رعب المفاجأة، وجرى بين أعمدة القصر العريضة المزخرفة وفتح الباب المؤدي إلى القبو، وجرى على الدرجات القديمة التي توحي بأن القصر قد شُيد في الأزمان السحيقة.. واستمر جريه بسرعة والثعبان يزيد من سرعته، حتى ظن أنه سيهلك دون شك..

ولكنه وصل أخيرًا إلى القبو، وجرى بين ممراته التي حفظها منذ أول مرة، ودفع باب السجن الحديدي بقوة؛ حتى إن صوت ارتطامه بالحائط كان أعلى مما تصور، ووضع يده بسرعة تحت العرش وأمسك بالبطاقة التي تحوي السر الرابع.

وانتظر حتى تتبدل معالم المكان، ولكن شيئًا لم يحدث.. فحيح الثعبان يزداد ارتفاعًا ويقترب.. وتسارعت معه دقات قلبه الخائفة.. فإلى أين سيذهب هذه المرة؟! لا مفر..

ووضع يده على صدره فأحس أن قلبه سينفجر بين ضلوعه، ونظر إلى يده الأخرى.. إن البطاقات متتالية على ترتيب معين غير الذي رآه طوال رحلاته في العالم الآخر! وجلس في انهيار على الأرض مستسلمًا للموت.

ولكن الثعبان المخيف تحور جسده إلى جسد صاحب السر، وظهر بعينيه الناريتين ناظرًا إليه، وقال ولذة الانتصار تملأ نبرات صوته:

أنت الآن قد رتبت في يدك الشفرة، ولا يتبقى سوى السر الأخير..

قال حسن بضعف، وصوته يتقطع من شدة التعب: اتركني الآن وأرجعني إلى عالمي، إن ولدي في خطر.

فكشف عباءته السوداء الطويلة، وقال بتحدٍ وسخرية: ابنك هذا؟

وظهر فارس بين يديه ضاغطًا على كتفيه بشدة، والطفل ينظر إلى حسن باستعطاف! نظر إليه محملقًا في ذهول، وقال والكلمات تخرج من فمه بصعوبة: كيف أتيت إلى هنا؟!

ولم ينتظر جواب السؤال، حيث جرى ناحيته واحتضنه بشدة، فأبعده الآخر بيده القوية وأخذ الطفل منه، وقال: سترحل من هذا العالم إلى الأبد وستأخذه معك، ولكن بعد أن تحرر لي السر الخامس.

ظهر سالم، وقال بصوت مرتفع وقلق بالغ: لا تصدقه.. إنه يخدعك ويضغط عليك به حتى يستحوذ عليك وتنفذ ما يأمرك به.

تبادل النظرات بينهما في شك وقلق، وقال في نفسه: ترى.. أي منهما الصادق؟ إن أي خطأ في الاختيار سيضيع ولدي مني، وبعد.. متى النهاية؟

وبينما هو صامت يفكر وهو في قمة الضغط الشديد غير قادر على اتخاذ قرار، إذا به يرى هيئة إنسان قادم خلال الظلام إلى السجن، رجل يعرفه جيدًا، رافقه بأذنه طوال هذه الرحلة.. إنه عاصم..

كان ينظر ويتأمل في كل شيء متعجبًا مدهوشًا بشدة، كأنما يشاهد متحفًا تاريخيًا، ودخل حجرة السجن وتوقف يجول ببصره بينهم، وبعد دقيقة من الملاحظة وعدم التصديق صاح قائلاً لحسن:

حسن.. أهذا هو القصر القديم الذي حكيت لي عنه ووصفته من قبل؟

لم يرد حسن، ونظر إليه نظرة نارية مكذّبة لتمثيله، واحتوى المكان الصمت، ولكن شقه فجأة صوت صاحب السر وهو يقول بحزم:

هل ستحرر السر الأخير أم آخذ الطفل؟

قال سالم: لا.. لا تفعل يا حسن!

ولكن حسن قاطعه بلا مبالاة، وقال: وما هو آخر سر؟

صاح سالم: وهل عرفت أصلاً ما هو السر الرابع؟! هل فهمت إلى أي شيء ترمز الصحراء والحجرة الحديدية؟ هل سألت نفسك لماذا أخذت البطاقة عندما حاولت الخروج من خلال الحديد؟ هل استنبطت بعقلك لماذا جاء بك واستدعاك من عالمك بترتيب عشوائي، ثم جعلك ترتبها في النهاية بهذا الترتيب؟ أتنفذ دون فكر أو وعي؟!

تجاهلا صراخه وكأنه لم يكن، واستمر حديثهما..

ونحى صاحب السر فارس جانبًا، ودخل الحجرة طفل آخر وثبت ظهره على الحائط، وأعطى حسن مسدسًا، وقال له:

اقتله!!

زاغت عينا حسن بشدة.. إنه يشبه ابنه ولكن الضوء الخافت لا يساعده على التحقق، ونظر إلى فارس ثم أشاح ببصره سريعًا نحو الطفل الآخر.. ما هذا الخداع الشرس؟! وقال بخفوت وصوت مرتعش خائف:

أي منهما فارس ابني؟!

(١٧)

وتاه عقله.. ماذا سيفعل؟!

صاح سالم: لا تنفذ أوامره.. إنه يخادعك فقد تقتل ابنك بيديك!

قال صاحب السر ببطء وخبث: اتبع قلبك للتفريق بينهما.

قال عاصم بجهل وتردد: ماذا يحدث هنا؟

صرخ به حسن: اخرس.. سوف أمزقك بيديّ بعدما أخرج من هنا.

قال صاحب السر بحزم: من ستقتل؟ لا بد أن تنهي هذه المتاهة وتخرج مع ابنك سليمًا، ما عليك إلا أن تضع يدك بالمسدس على رأس أحدهما.. ثم طلقة واحدة وتتحرر من هذا العالم إلى الأبد، وينتهي كل شيء.

قال حسن باستسلام: سأفعل كل ما تأمرني به.. سأقتل هذا الطفل.. نعم سأقتله يا صاحب السر.

ووجه يده بالمسدس ناحية أحد الطفلين.. ظهر في عينيه الصغيرتين البريئتين الخوف الشديد..

وهلع سالم: لا.. ستقتل ابنك أيها المجنون، ليس هذا المخلوق هو صاحب السر.. بل أنت!

توقف كل شيء بسبب هذه الكلمة الأخيرة.. أنفاس حسن.. بلعه لريقه.. عيناه وهما تلتفتان وكأنه تحول إلى تمثال، ثم أدار رأسه بعيدًا عن الطفل وقال بخوف:

كيف؟!

صاح سالم: كل ذلك ولا تفهم أيها الغبي؟ أنت صاحب السر.. أنت الذي بيديه الشفرة السرية التي يمكن أن تستخدمها في الانتصار عليه والخروج من هنا، أو يمكن أن تستخدمها في إضاعة ما تبقى من إنسانيتك..

تدخل عاصم في الكلام: أيًا كانت الأسباب لا تقتل..

انفعل حسن وأدار يده بالمسدس تجاه عاصم، وقال بعصبية: لا أريد أن أسمع صوتك نهائيًا، أنت من تهاجمني كل مرة.

ولكن قطع كل ذلك شيء لم يكن يتصوره حسن ولا عاصم طوال هذه الرحلة العجيبة.. المخيفة والطويلة أيضًا..

شعر حسن كم كان مغفلاً لا يفكر.. كيف كان سالم يتحرك بحرية في العالم الآخر على الرغم من ادعائه أن صاحب السر استحوذ عليه؟ كيف استدعاه سالم إلى المنطقة الحجرية والسواد العظيم والطريق المؤدي إلى الجبل الذي سقط منه، رغم أن أي مخلوق لا يستطيع استدعاء حسن إلى العالم الآخر إلا صاحب السر نفسه؟ وعندما دافع

عن سناء أنها ليست خائنة.. كيف عرف تفاصيل اتصالها بالعيادة وأن حسن ذهب إلى الطبيب أصلاً؟! سالم.. ذلك اللغز.

رأوه يتحول.. إلى شيء بغيض.. شيء يحطم أعصاب حسن ويكاد يطيح بعقله، يتحول لمخلوق عذبه كثيرًا وهو أساس كل المصائب التي حلت على رأسه، نظر حسن وعاصم إليه برعب.. تكاد الألغاز التي رأوها تفقدهما وعيهما، وتصلب جسداهما وخرجت عيونهما من محجريهما من هول المفاجأة، وظلا هكذا غير قادرين على التصديق أو حتى الاستيعاب.

وأيقن كل منهما بالخديعة الكبرى..

لقد تحول سالم إلى ذلك المخلوق البشع.. ذي العينين الحمراوين والمسمى صاحب السر!! أما الذي كان يحادثهما منذ لحظة فاندمج معه وكونا كيانًا واحدًا.

لم يستطع أي كلام أن يصف ما يحدث، فأخرسهما الصمت تمامًا، واستمعا فقط لكلمات صاحب السر:

نعم.. أنا صاحب السر وأنا سالم وأنا من كان يريد إيقاعك من سلم المدرسة المهجورة ومن أعلى الجبل، وأنا من يضغط عليك ويفرج عنك دائمًا بمساعدته لك، وأنا من يعذبك ويخفف عنك بنصائحه، وأنا عدوك وصديقك، أنا من يحدد لك الطرق ومن ينهيك عنها، ومن يغريك بشيء ثم إذا فعلته يشعرك بالأسف، أُفهمك وأُغمض عينيك

في نفس الوقت، أُشير إليك بشيء وأُخفي عنك أشياء، لأنك دخلت دائرتي فستسير بقواعدي، وأيًا كان قرارك فأنت ملكي وتحت سيطرتي، وليس أمامك إلا أن تفعل ما آمرك به، لقد تملكتك ورسمت على أصابع قدمك الشفرة واستدعيتك بسهولة..

أفهمت ما هو السر الرابع؟ لقد وضعتك في الضياع، لا تفهم شيئًا، منغلق عليك كل شيء حتى الهواء الداخل إلى صدرك، فحتى لو كنت خرجت فإلى أين كنت ستذهب؟ قلت لك أنك ستستطيع الخروج مثلي تمامًا.. أن تعبر خلال الحديد وصدقتني كما صدقتني في كل خطوة، يمكنك فعلاً العبور خلال الحديد ولكن من قال لك أنك ستعبره بطريقتي أنا؟! فبعض الحقائق لا تستطيع فهمها إلا بعد فوات الأوان، والحقائق الكبيرة غالبًا ما تكون صادمة وجريئة، ومهما عشت في هذه الحياة فالجانب المثير من القصة لم تسمعه بعد.

والسر الرابع هو الذي أهّلك للسر الخامس والأخير في هذه الرحلة، كان يمكنك الرجوع من قبل ولكن الآن مستحيل..

هذا مجرد سر.. والأسرار.. ما هي؟ وما عددها؟ فالأسرار لا حصر لها، أعرفت الآن أنك قزم تبحث عن أي شيء يُخرجك من الأزمة فقط دون تفكير؟

وسري أنا ألم تفكر فيه؟ نعم رأيتني في صورتي هذه وصورة سالم الناصح الطيب المستضعف حبيس هذا العالم، والذي كان يعرضك

للموت في كل مرة ليصيب قلبك بالهلع وتصبح جاهزًا لتنفيذ أي شيء، وفي صورة الطبيب وفي صورة الابن والزوجة.

ثم ضحك ضحكة ساخرة، وقال: حتى عقلك رآني دون تدخل مني في متجر السلع الغذائية وأنت تشتري احتياجاتك.. ويمكنني أيضًا أن أصير في أي صورة تحبها أو تكرهها.

فأنا من أصنع الديكور وأنا الممثل وأنا المخرج..

أخيرًا نطق عاصم، وقال باستنكار: أنت مغرور جدًا أيها الشيء، أنت أضعف مما تقول.

رد بخبث: لو كنت ضعيفًا ما كنت غلبته كل هذه الجولات.

نظر عاصم لحسن نظرة مستعرة ملقية باللوم..

صاح حسن: ماذا كنت تنتظرني أن أفعل؟ يمكنك نصحي بكل بساطة وسهولة ما لم تكن في نفس الأزمة.

صاحب السر: سالم أفهمك أنك لابد أن تموت هنا لتنتقل روحك إلى عالمك ولا تعود، ولكن حياتك.. وجودك واحد في كل شيء، فأنت هو أنت ولا يمكنك أن تعيش وتموت مرتين في الحياة، فإما أن تعيش في عالمك أو تعيش في عالم آخر، لذا.. فأهلاً بك في العالم الآخر..

حسن: وما العمل؟ كيف سأخرج من هنا؟

ونظر سريعًا إلى عاصم، ثم ثبت بصره على ابنه.

عاصم بصوت خافت وتأكيد: نعم هذا صحيح.. لقد حللت اللغز ورتبت الشفرة بعد عناء شديد وتفكير، وبعدما رتبتها فورًا وجدت نفسي هنا في هذا العالم.. ولقد سافرت إلى هنا أكثر من مرة، وأول مرة جئت هنا رأيتك تحاول اجتياز جدار الحجرة الحديدية.. فعلاً.. إنه عالم غريب جدًا في طبيعته وقوانينه الفيزيائية.

ضحك المسخ الغريب ضحكة استهزائية، وقال: وما نهاية كل ذلك؟ وما يثبت أن عاصم صادق؟! أو حتى أنا.. ماذا يثبت أني صادق فيما قلته لك الآن أو حتى فيما قلته من قبل؟ فقد تفاجأ بالهاوية في الزاوية التي تظنها الأكثر أمانًا.. قرارك الآن هو الفيصل الأخير الذي سيخلصك.

أعاد حسن توجيه يده إلى نفس الطفل مع استمرار صياح عاصم بألا يفعل، حبس حسن نفسه.. وارتعشت يده بشدة، إنها لحظة رهيبة بالنسبة له.. إما أن يظل في نفس الدائرة ولا يخرج منها أبدًا ويكون قد قتل ابنه بيديه، وإما أن ينجو بابنه من هذا العالم المظلم، وتسارعت أفكاره في عقله.. وتذكر الصرخات التي كانت تهز كيانه في بداية كل رحلة إلى العالم الآخر.. واستحضر كل رحلة..

وسقوطه من أعلى الجبل في الظلام.. كم هو بشع ذلك الإحساس بالسقوط في المجهول والضياع.

الثعبان الضخم وهو يتلوى عابرًا على صدره، وقلبه يتمزق رعبًا وقفصه الصدري متحملاً ذلك الثقل الشديد عليه..

ضياعه في عالم منعدم الجاذبية والضوء مواجهًا الظلام والعدم..

وسمع في أذنيه كلمات عاصم من قبل وهو يقول: "إنني أشتبه أنك واقع تحت سيطرة ذلك الكائن بالفعل، وأنك تؤدي هذه الأفعال حقًا، وليست المسألة مجرد انتقال إلى عالم آخر أو غيبوبة".

وسمع أيضًا كلمات سناء وهي تتحسر دامعة قائلة: "ماذا حدث لنا؟ لقد كنا أسرة سعيدة".

وتذكر كلمات سالم التحذيرية: " لقد أراد من تسميه صاحب السر أن تجمع له شفرات الأسرار التي تنزعك من إنسانيتك كي يهزمك ويعيش داخلك.. يأمرك فتطيع.. إنها حرب عليك يا أخي".

وأدرك تمامًا أنه بذلك سيحرر السر الخامس..

وخلال هذه اللحظات البسيطة التي كان يفكر فيها موجهًا تركيزه نحو الجدار الجانبي، الذي أسند إليه الطفلين ظهريهما وقد تساقطت الدموع من عينيهما في خوف.. وظهرت في عينيّ المخلوق الغريب ابتسامة خبيثة بالانتصار، مراقبًا حسن وقد استعد لتنفيذ أمره.. كان عاصم أثناء ذلك يمد يده نحو أحد السيفين الأثريين اللذين كانا معلقين خلف العرش.

وفجأة.. قفز عاصم أمام حسن بحركة سريعة وصيحة عالية مشتتًا ذهنه، وهوى بكل قوته على جسد صاحب السر، وتفجرت دماء سوداء مائلة إلى الاحمرار لزجة كريهة الرائحة من جسده، ولكنه رد عليه بنظرة تحدٍ.. لم تقتله الضربة فحاول عاصم ثانية، فأمسك صاحب السر بطرف السيف، فتوقف جسد عاصم عن الحركة، لا يستطيع الفرار منه الآن، واقترب حتى أمسك بمقبض السيف، وعاصم لا يستطيع فعل أي شيء ناظرًا إليه في استسلام، فرفع الكائن الغريب السيف أعلى عاصم ليهوي به على رأسه ويشقه نصفين..

وانطلقت الرصاصة بسرعة في رأس صاحب السر، بينما انتزع عاصم السيف منه وغرسه فيه.. فترنح و تهاوى..

وتلاشى الطفل المزيف الذي لم يكن حسن موجهًا إليه المسدس، وتعالت الصرخات العالية المجنونة.. صرخات فارس من رؤية ذلك الجسد الصريع أمامه.. وصرخات المخلوق الغريب وهو ينهار:

ليست هذه هي النهاية.. إنني موجود دائمًا.. هذا جسد يفنى ويموت، ولكن أنفاسي وخيالاتي ستلاحقك مهما تصورت أنك نجوت مني..

وظلت صرخاته تضعف حتى تحطم ثم تلاشى تمامًا..

صرخ حسن بانتصار: أنا صاحب السر، أنا وليس أنت.

ولكنهما أفاقا على ما يحدث حولهما.. كل شيء يتداعى ويتساقط.

صاح عاصم بجزع: ماذا سنفعل الآن؟! إن القصر سيتحطم فوق رءوسنا!!

حمل حسن ابنه واحتضنه مهدئًا من روعه، وخرجوا بسرعة جريًا محاولين تفادي تساقط الحجارة على رءوسهم.. ودخلت أقدامهم وضربات قلوبهم وأنفاسهم المتسارعة في سباق للجري في ممرات القبو، بينما كانت الأعمدة تتساقط وكل شيء ينهار أمامهم.

وحاولا الطيران على السلم آملين في الوصول إلى أعلى، ولكن بعد دقيقة كان المكان قد تهدم تمامًا بكل ما فيه!

obeikan.com

obeikan.com

(١٨)

فتح عاصم عينيه ببطء مواجهًا الضوء الساطع، بعدما كان في الظلام في مكان ما.. قام منهكًا وأغلق النافذة، ونظر في الساعة المعلقة على الحائط.. إنها الثامنة صباحًا، ورمى نفسه على أحد المقاعد المصنوعة من الجلد في عيادته، واستنشق شهيقًا عميقًا، وفكر:

كم كانت رحلة عجيبة.. فيها تتغير مقاييسنا التي نفكر بها ونتعامل من خلالها مع الحياة كمسلمات لا نقاش فيها.

واسترجع المشاهد أمام عينيه، وتساءل:

هل كان حلمًا؟ هل كل ما رأيته ولمسته بيديّ وعانيته وخفت منه كان حلمًا أم حقيقة؟ لولا وجود من سمى نفسه بصاحب السر هذا في العالم الآخر لكنت سافرت كل يوم لأرى ما لا يستطيع أحد أن يراه، ولكن لم لا أرتب الشفرة ثانية وأعود إلى ذلك العالم؟ الشفرة التي أرهقتني تفكيرًا لأرتبها حتى أصبحت جزءًا من يدي وعيني وتركيزي، أين هي؟

انتفض ونظر سريعًا حوله على الأرض وفي جيبه.. إنها غير موجودة!! فصاح:

أين ضاعت؟! ترى أين حسن وابنه؟

فتح دفاتر المرضى وأخذ منها عنوان منزل حسن في ورقة، وفتح الباب سريعًا وقفز على درجات السلم قلقًا متمنيًا أن يكونا قد رجعا أيضًا؟، ولم يتوها أو يموتا في العالم الآخر، وطار بسيارته مفكرًا في أدق الدقائق حتى يفسر شيئًا يريح قلبه قبل أن يصل.

وعندما وصل إلى الشقة طرق الباب وضغط على الجرس بتكرار واستماتة، حتى فتحت سناء قلقة، فصاحت:

الطبيب عاصم؟

قال: هل عاد حسن وابنه أمس؟

تلعثمت ثم قالت: نعم.. نعم تفضل.

أخذ عاصم نفسًا عميقًا حامدًا الله ودخل، وخرج حسن زائغًا مرهقًا من غرفة النوم، ورحب به، فقال بسرعة:

أعتذر عن الازعاج ولكن كنت أريد أن أطمئن عليكما.

حسن: لا عليك.. لقد كان يومًا مرهقًا رهيبًا بحق.

سناء: كل أيامنا أصبحت رهيبة منذ بداية النوبات التي كانت تغيبك عما حولك.

عاصم: قل لي ماذا حدث؟

حسن: لقد أفقت في الشارع وحولي المارة، فحملوني للمقهى الذي كنت أمر أمامه حينما أتتني الصرخات، وعندما أفقت تدريجيًا تذكرت ما حدث، وجريت بسرعة إلى بيت جد فارس، فوجدته أفاق وعاد لطبيعته.

- حمدًا لله على سلامتك، ولكن.. عجبًا.. لقد استغرقت رحلتك عدة دقائق فقط حاول فيها الناس إفاقتك، بينما استغرقت رحلتي الليل بأكمله على الرغم أننا كنا معًا..

- نعم إنه عالم غريب، وقياس الزمن فيه مختلف عما تعودنا عليه.

- هل معك الشفرة؟

فكر حسن قليلاً، ثم قال: أعتقد أنها ليست معي، لم يهمني البحث عنها بعدما رجعنا، فكل تفكيري وخوفي كان منصبًا على ولدي لأبعده عن الخطر.

رد عاصم بصوت خافت قلق: الشفرة ليست معي أيضًا.

رد حسن بحزم: اسمع أيها الطبيب.. لا أنكر أن لك فضل كبير في مساعدتنا ونجاتنا، ولا أنكر أنك تعبت فعلاً في حل هذا اللغز وتفسيره، ولكن أرجوك لا تتحدث فيه معي ثانية، سأحاول العيش بصورة طبيعية وأنسى كل ما حدث، لقد انتهى كل شيء وتشاركنا - نحن الثلاثة - في ترتيب الشفرة عندما أيقنا بالهلاك أثناء تهدم القصر من حولنا وأدركنا أننا سنموت هناك إلى غير رجعة، رتبناها في ذعر وهلع

وعدم تأكد من جدوى ما نفعله.. لقد حوصرنا من كل جانب ولم يكن هناك حل آخر، أما بعد رجوعنا فلم يعد لها أهمية بالنسبة لي.

هز عاصم رأسه في فهم، وقال: نعم لقد رتبناها معًا لتنقلنا لعالمنا، وكانت ضريبة ذلك أن سرّها ضاع بيننا، فلم تعد في يد واحد فقط يمكنه استخدامها، بل أصبحت بذلك وسيلة لتوصيلنا فقط.

نظر حسن إليه بشك، وقال: كيف عرفت كل هذا؟

عاصم: كما قلت لك من قبل، لقد سافرت إلى ذلك العالم بعدما نجحت في ترتيب الشفرة، وقابلت صاحب السر، ولكي يدمر أعصابي أخبرني أن كلمة السر أو الشفرة أو تلك البوابة التي تنقلنا من عالم لآخر لا يمكن أن تتشتت بين اثنين، وقال لي بسخرية إما أن أعود أنا أو تعود أنت..

- إذن.. معنى هذا الكلام أن السفر مستحيل لأكثر من شخص بنفس الشفرة، وليس معناه أنها ستتشتت إذا سافروا بها..

أرجع عاصم ظهره إلى الوراء مفكرًا وقد رجع إليه الخوف مجددًا: ترى.. هل كانت عودتنا إلى عالمنا بتأثير الشفرة أم بإرادة صاحب السر نفسه؟! وما معنى كلامه بأنها ليست النهاية، وأنه سيكون بيننا ولو لم يسيطر علينا بشفرته وصرخاته؟!

أسند حسن رأسه أيضًا إلى يديه مرهقًا، ثم قال: التفكير الآن لا يحل أي شيء، لقد انتهت رحلتنا العجيبة وفقط..

عاصم: أخشى أن يكون كلامه قبل أن يتهدم القصر صحيحًا.

- أرأيت كلامه حينما ظهرت صورة سالم على حقيقتها؟ إن سالم هو صورة صاحب السر الأخرى، وهذا دليل على أن كلامه وأفعاله تحمل أكثر من معنى، فهو أصلاً غامض يظهر في أكثر من صورة.. يراوغك ويتيه عقلك ويسخر منك، وكلما قال كلمة فهي وحدها تعتبر احتمالاً قائمًا بذاته، لا يهم التفسير الآن، فلو حاولنا تفسير كل ما نقابله في حياتنا فسنجن.

- هذا لا يمنع أنك رأيت ولمست وأحسست بأشياء غريبة ومثيرة، وعرفت ما لا يعرفه الكثيرون..

مرت لحظة صمت، ثم قالت سناء: من المؤكد أنك جوعان، سأحضّر لك الفطور.

فقام عاصم بسرعة، وقال:

لا.. لا أريد أن أتعبك، لقد اطمأننت عليكم وسأرجع بيتي لأنام، أريد أن أعوض القلق والإرهاق اللذين عصفا بي مؤخرًا.

*****

وفي اليوم التالي ذهب فارس إلى مدرسته وحسن إلى عمله مشرق الوجه ممتلئًا بالأمل والراحة، وعمل يومها بحماس لا يقارن بحماسه عندما التحق بالعمل لأول مرة، وأثناء طريقه إلى بيته دخل المسجد وصلى صلاة العصر، واقترب من الشيخ وسلم عليه، فقال له بابتسامة هادئة:

وجهك اليوم كالبدر، أسعدك الله يا بني..

وخرج هادىء البال من المسجد، وسار قليلاً حتى اقترب من المنزل، حتى فاجأه شخص بأن ضغط على كتفه من الخلف قائلاً:

كم الساعة الآن من فضلك؟

التفت حسن إليه ليخبره بالساعة، ولكن اصطدمت عيناه به وانعقد لسانه وتوقفت أنفاسه، وارتخت يداه ووقعت حقيبته فانحنى ليحملها، وأقام ظهره مرة أخرى، والتفت في كل اتجاه.. لقد اختفى محدثه!!

ظل ساهمًا للحظة غير مصدق، وقال في نفسه: يبدو أن ذهني لم يتعافى نهائيًا مما حدث في الفترة السابقة.

وهز رأسه كأنما يريد إسقاط الأفكار كلها منه، واستمر في سيره حتى ألقى عليه السلام صاحب البقالة التي في بداية الشارع الذي يسكن فيه، فالتفت بعفوية، ثم راحت ابتسامته وتجمد وجهه..

وسمع صوت سيارة تعبر بجانبه، فنظر إلى السائق فتأكد ما رآه منذ لحظات، وهز رأسه بقوة، ولكن اصطدم كتفه بشخص ما.. فالتفت إليه فاكتشف أنه محاصر..

إنه حوله في كل مكان.. يقف هناك.. يعبر الشارع.. يشتري شيئًا.. يتخلل السائرين هنا وهناك.. يقف جانبًا ويتكلم في الهاتف المحمول، والناس لا تلتفت إليه بأدنى دهشة، ويتعاملون معه ببساطة كأنه منهم..

ارتخى جسده ثانية واسترجع ما حدث في آخر رحلة له في العالم الآخر:

لقد أمرني صاحب السر بالقتل.. فقتلته، هل نفذت بذلك قراره؟ هل حررت السر الخامس، أم كان ذلك دفاعًا عن نفسي؟! والشفرة.. أين هي؟ أين ضاعت مني تلك الشفرة اللعينة؟

وزاغت عيناه عن كل الصور المتشابهة أمامه ولا يستطيع تصديقها..

إنه سالم..

(تمت)

obeikan.com

obeikan.com

المراجع:

- Journal of Cymatics (the study of sound made visible)

www.Cymatica.com

- www.wikipedia.org/wiki/cymatics

- Acoustics and vibration animations (Daniel A.Russell , Ph.D)

obeikan.com

صدر للكاتبة

- الأصوات الخفية (مجموعة قصصية)

- لعنات الموتى: بالاشتراك مع الكاتب مصطفى جميل (مجموعة قصصية)

- حكايات (كتاب جماعي)

للتواصل مع الكاتبة:

Fatma_biochemist٢٠٢٢@yahoo.com

https://www.facebook.com/AlaswatAlkhfyt

obeikan.com

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

obeikan.com